مَشَاعِرِ الحُبّ
بين التَّقلُّب والثّبات

الأستاذ الدكتور

على الخطيب

أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد

وعضوا اتحاد كتاب مصر

وعضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية

والعميد الأسبق لكلية اللغة العربية بجرجا

جامعة الأزهر الشريف

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دار الجديد للنشر والتوزيع

796.4
ا.ع

الخطيب ، علي .
مشـاعر الحـب بـين التقلـب والثبـات / علـي الخطيـب .- ط1.-
دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دار الجديد للنشر والتوزيع .
136 ص ؛ 17.5 × 24.5سم .
تدمك : 8- 642– 308 – 977 – 978
1. الحب في الأدب العربي .
أ - العنوان

رقم الإيداع : 28127 .

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز
هاتـف- فاكس : 0020472550341 محمول : 00201285932553-00201277554725
E-mail: elelm_aleman2016@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com

الناشر : دار الجديد للنشر والتوزيع
تجزءة عزوز عبد الله رقم 71 زرالدة الجزائر
هاتف : 002013 (0) 24308278
محمول 002013 (0) 661623797 & 002013 (0) 772136377
E-mail: dar_eldjadid@hotmail.com

2018



﴿ إهـــداء ﴾

إلى كل المحبين في الله ورسوله
وإلى أهل العفة والعفاف

والحُبّ إن ملك النفوس أعزها والعارفون بربهم علماء

نهدى هذا الكتاب

فهرس الكتاب

﴿توطئة﴾

الحبُّ نفحة ربانية لا يكاد يخلو من تنسـمها إنســان ، وأجمل ما فى الحب أن يكون متبادلاً ، والمأساة فيه ألا يودك من تهواه ، كقول الأعشى:

جـنـنـا بـلـيـلي وهى جنـت بغيرنـا   وأخـرى بنـا مجنونـة مـا نريـدهـا

وهـذا الكتاب يتحدث عن الحبُّ بين التقلب والثبات ، فهناك حبٌّ من أول نظرة ، وحـبٌّ من النظرة الثانية ، وهناك الحب العذري العفيف ، وهو : الذي يدوم بين المحبين ؛ لأنه حبٌّ خالص لوجه الله ، فيدوم بدوامه.

والـحـب إن مـلـك النفوس أعزهـا   والـعـارفـون بـربـهـم عـلـماء

الحبُّ

تقول معاجم اللغة " الحبُّ نقيض البعض والحب هو " الوداد" والمحبة ، وكذلك " الحبّ بكسر الحاء ، وحكى عن " خالد بن نضلة" ما هذا الحبّ الطارق بكسر الحاء ، وأحبّه فهو " مّحبّ وهو " مُحِب " على القياس ، وقد جاء " المحبّ " بضـــم الميم ، وفتح الحاء شاذاً في الشعر ، قال عنترة بن شداد العبسي :

و لقد نزلت فلا تظني غيره ... مني بمنزلة المُحبّ المكرَم

وحكي الأزهريّ ، عن الفداء قال : " وحَيْتهَ " لغة وكره بعضـــهم " حببنه " وأنكر أن يكون هذا البيت الفصيح ، وهو قول "عيلان بن سجاع النهشليّ " :

أحب أبا مروان من أجل تمره ... وأعلم أن الجار بالجار أرفق

فأقســم ، لولا تمره ما حببته ... ولا كان أدنى من عبيد ومشرق [1]

وعلى هذه الرواية لا يكون فيه إقواء :

وحكي " سيبويه " حببنه ، وأحبيته " بمعني واحد ، وأحبه الله فهو محبوب ، والمحبة اســم للحبّ ، ويحببّ إليه يعني ، " تودّد " وامرأة محبّة لزوجها ومحب أيضـــاً ، والحب هو " الحبيب " مثل خرْن ، وخرَين ، والحبيب أيضـــاً يجى تارة بمعني " المحِبّ " كقول المخبل :

أتهجر ليلى بالفراق حبيبها ... وما كان نفســـاً الفراق تطيب

أي " مُحبّها " ويجئ تارة بمعني " المحبوب " كقول ابن الدمينة :

فإن الكثيب الفرد من جانبي الحمى ... إلى وإن لم آته لحبيب [2]

---

(1) تاج العروس ط ص٣٩١ ، وما بعدها ط ، دار الفكر ، ١٩٩٤م ، ١٤١٤ه .
(2) الديوان ص١١٠ ، تحقيق احمد راتب النفاخ ، مكتبة دار العروبة .

أي المحبوب ، والحِبّ " المحبوب " وكان الصحابي الجليل " زيد بن حارثة " ا" يُـدْعي حبٌّ.

ورسـول الله " ﷺ " . والأنْثَى بالهاء ، وفى الحديث ومن يجترئ على ذلك إلا " أسـامة " حبّ رســول الله " ﷺ " ، أي محبوبة، وفى حديث " فاطمة " رضي الله عنها " : قال لها رسـول الله " ﷺ " عن عائشـة إنها حبّة أبيك ، والحبّ بكسر الحاء " المحبوب " والأنثى حبّـة " وجمع الحـبّ ، أحبـاب ، حبـات ، وحبوب ، وحببـه ، والحبـاب " الحـبّ " وفى حديث أنس انظروا حبّ الأنصار والتمْر.

وفى حديث جبل أحد : " هو جبل يجبّنا ونحبّه " ، وقال ابن الأثير : " هذا محمول على المجاز ، وأراد أنه جبل يحبّنا أهلة، ونحبّ أهله ، وهم الأنصار " [1] .

الحبٌّ :

(أحببت الشيء فهو محَبٌّ ، واستحببته مثله ، ويكون الاستحباب بمعني الاستحسان وحَبْبْتُه أحِبُّه (من باب ضرب / والقياس) (أحُبُّه) بالضم لكنة غير مستعمل ، وحَبْبِتُه أَحَبُّـه (مـن بـاب تـعِـب) لـغـة ، وفيـه لـغـة لـهـذيـل : حـاَبْبـتـهُ حِبـابـاً (من باب قَاتَل) والحُبّ اســم منه فهو محبوب ، وحبيب ، وحِبٌّ بالكسرــ ، والأنثى حبيبة والجمع حبائب ، وجمع المذكر أحباء

قالوا : كل ما كان على " فعيل من الصـفات فإن كان غير مضـاعف فبابه " فُعُلاء " مثل شريف وشرفاء ، وإن كان مضاعفاً فبابه " أفْعِلاء " مثل حبيب وطبيب وخليل

والحَبُّ اسـم جنس للحِنْطة ، وغيرها مما يكون في السُّنْبل والأكمام والجمع حبوب مثل فلْس وفُلُوس ، الواحـدة حَبُّـه ، وتجمع (حَبّـاتٍ) على لفظها ، على (حَبِاب) مثل كلية وكلاب ، والحـبّ بـالكس بزر مـالا يقتات مثل بُزُور الرياحين ، الواحدة حِبّة إلى واحدة مثلما تنتقـل النحلـة من زهرة إلى زهرة طلباً للرحيق ، والعطر ، فهو دائماً ظمأى رويت نفســه من كأس عادوه الظمأ إلى كأس أخرى ، وهو في كل مرة لا يطلب من الكأس إلا أن تروى ظمأه ، وتبلّ صــداه ، وتطفئ ناره فالكأس نفســها لا تعنيه إلا بقدر ما ينال منها من شراب.

([1]) لســان العرب : لأبن منظور : فصــل الحاء المهملة ، ص٢٢٨ ، إلى ص٢٩٦ ط ، صــادر ، بيروت ، لبنان ، ط الأولي ١٤١٠ه ، ١٩٩٠م .



وهنـاك حُـبّ روحي يتعلق فيـه العـاشـــق بمحبوبة واحدة يرى فيها مثله الأعلى الذي يحقق له متعة الروح ، ورضي النفس ، واسـتقرار العاطفة ، وهو اسـتقرار يجعل فتنته بواحـدة تقف عندها أماله ، وتتحقق فيها كل أمانيه ؛ فهي الغاية والهدف الذي يطلبه والغاية التي يسـعي إليها ، والأمل الذي يرتجيه ، والمعبود الذي يقضى عمره في محراب حبّه يوقد له الشـموع ، ويحرق البخور ، مثله كمثل الفراشـة التي تتهافت على النور ، ولا تزال تحوم حوله حتى تحرقه نباره ؛ فالمحبوبة لديه هي الكأس الذي يقضىـ حياته ظـامئـاً إليهـا لا يعـدوها إلى غيرة لأنه لا يطلب ســواها ؛ فهي كأس بعينيها يرنو إليها وتغياها .

وقد عرف العرب منذ أقدم عصـورهم هاتين الصـورتين من صـور الحب ، كما عرفتهما سـائر الشـعوب ، وحوالي منتصـف القرن الأول للهجرة ، وبعد أن اسـتقام الأمر (لبني أميـة) واســتقرت لهم دولتهم الجديدة ، امتازت الصــورة الأخيرة بســمات معينة ، واتخذت لها طابعاً خاصاً ، اكتسبت اسماً جديداً فعرف باسم (الحب العذري) نسبة إلى قبيلة (بني عذره) وفى هذه الحقبة ظهر عُشّـاق عدوا النماذج الصحيحة لهذا الحُبّ ، فأطلق عليم اسم (العذريين) نسبة إلى هذا اللون من ألوان الحبّ .

أو بنو عذره " بطن (من قضـاعة) التي يصل نسبها إلى قبيلة (حِميَر اليمنية) أو مَعَدّ العدنانية ؛ وذلك على خلاف بين النســابين العرب ، وكان بنو عذره : ينزلون في البادية العربية شمالي الحجاز في منطقة (وادي القرى) وتبوك إلى (أيلة) على البحر الأحمر .

ومنذ العصرـ الجاهلي اشـتهرت هذه القبيلة بالقوة والمنعة والشرف ، وكان منهم سادة مثل (رزاح بن ربيعة) وهو الذي اسـتنجد به (قصي- جد النبي " ﷺ " أخاً لأمه حربه مع " خزاعـة " فـانجـده ، وأعـانـه حتى أجلاهـا عن (مكة) وغلبها على البيت الحرام، وبذلك تولت (قريش) سدانته .

وتحفل مصــادر الأدب العربي بأخبار هؤلاء العذريين وأشــعارهم ، وهى أخبار تختلط فيها الحقيقة بالأسـطورة ، والواقع بالخيال ، فهي مادة صـالحة للسـمر الشـهي الممتع وأشـعار هؤلاء العذريين تختلط نسـبتها إلى أصـحابها اختلاطاً بعيد المدى فما ينسـب لأحدهم ينسـب للآخر ، فالقصـيدة الواحدة يتنازعها شـعراؤهم ؛ وذلك بنسـبتها لأكثر من شاعر [1] .

([1]) الحبُّ المثالي عند العرب : د/ يوسف خليف ، مكتبة الأسرة .

وأقدم قصص العذريين ، قصة (عروة وعفراء) :

وهما من قبيلة " بني عذرة " فقد أحب " عروة بن حزام " ابنة عمه " عفراء " وهما صبيان ، وكان " عروة " يعيش في بيت أبيها بعد وفاة أبية ، وربط الحب بين قلبيهما في طفولتهما الباكرة ، فأرسل " عروة " إلى عمه يطلب " عفراء " ، ووقف المال عقبة في طريق العاشقين ، وعجز " عروة " عن القيام بجمع المهر وصارحه " عروة " بحب " عفراء " ؛ فراح عمه يماطله ثم طلب إليه أن يضرب في الأرض بحثاً عن المال ؛ ليجمع مهر " عفراء " ، ثم عاد بعد حين من الزمن ؛ وقد جمع مهرها ، فأخبره عمه بعد عودته أن " عفراء " ماتت وأراه قبراً لها فتحطمت آماله ، وتبددت أحلامه ، وأصبح هذا القبر بيتاً لآلامه فبكي حبّه الضائع ، وقد ترامت إليه أنباء ؛ بأن عفراء لم تمت ولكنها تزوجت بأموي غنى بالشام رأي عفراء فأعجبته ، ثم تم الزواج على الرغم من معارضتها ، ورحل بها إلى الشام ، وهنا تثور ثائرة " عروة " ويصب جام غضبة على عمه ؛ الذي خدعة فمضى يهجوه قائلاً :

فيا عمٌ يا ذا الغَدْرِ لا زِلْتَ مُبْتَلى	حليفاً لهمٍّ لازمٍ وهوانِ
غدرتَ وكانَ الغدرُ منكَ سجية	فَأَلْزَمْتَ قلبي دائمَ الخفقانِ
وأورثتني غمّاً وكرباً وحسرةً	وأورثتَ عيني دائمَ الهملانِ
فلا زِلْتَ ذا شوقٍ إلى منْ هويتهُ	وقلبكَ مقسومٌ بِكُلِّ مكانِ

وينطلق " عروة إلى الشام وهى الآن تضم الدول الآتية :

(لبنان ، وسوريا ، والأردن ، وفلسطين) وينزل ضيفاً على زوج " عفراء " والزوج لا يعرفه ، ثم بعث إلى " عفراء " بخاتمه في إناء لبن مع جارته لها ؛ فعرفت " عفراء " أن ضيف زوجها هو حبيبها القديم ، وكانت الشكوى والدموع ، ويعود "عروة " إلى وطنه حرصاً منه على سمعة " عفراء " وكرامتها ، واحتراماً لزوجها الذي أحسن وفادته ، وأكرم مثواه ، ويرحل "عروة " بعد أن زودته " عفراء " بخمار لها ؛ ليكون الخمار ذكرى " لعروة " وسلواناً له عسى أن يخفف عنه بعض ما هو فيه ، وقد التقى "عروة " بعرّاف " اليمامة " ابن مكحول " فقال له : أبك خبل أم جنون ؟

فقال له "عروة " : أتعرف في الطب ؟

قال ابن مكحول : نعم .

فأنشد "عروة " قائلاً :

وما بي مِن خبل ولا بي جُنّة ... ولكن عمي يا أُخيَّ كذوبُ

أقول لعَرَّاف اليمامة دَاوِني ... فإنك إن داوَيتَني لطبيبُ

وإني لتَعْرُوني لذِكْرَاك هِزّةٌ ... لها بين جِلْدِي والعظام دبيبُ

ويقول "عروة " أيضاً في هذا المضمار :

تحمّلتُ منْ عفراءَ ما ليسَ لي بهِ ... ولا للجبالِ الرّاسياتِ يدانِ

كَأَنَّ قَطاةٌ عُلِّقَتْ بِجَناحَهَا ... على كبدي منْ شدّةِ الخفقانِ

فَقالاَ: نَعَمْ نَشْفِي مِنَ الدَّاءِ كُلَّهِ ... وقاما مع العُوَّادِ يُبتَدَرانِ

ويقول أيضاً :

فو الله لا أنساكِ ما هبّتِ الصبا ... وما عقّبتها في الرياح جنُوبُ

وإني لتَعْرُوني لذِكْرَاك هِزّةٌ ... لها بين جِلْدِي والعظام دبيبُ

وما هوَ إلاّ أن أراها فجاءة ... فَأُبْهَتُ حتى مَا أَكَادُ أُجِيبُ

وأُصرفُ عن رأيي الّذي كنتُ أرتئي ... وأَنسى الّذي حُدِّثْتُ ثُمَّ تَغِيبُ

لئنْ كانَ بردُ الماءِ عطشانَ صادياً ... إليَّ حبيباً، إنّها لحبيبُ

ويقضى " عروة " أيامه بين أمل عاش له ثم ضاع منه إلى الأبد ، وللم يعيش فيه إلى الأبد ، وبينهما خيال المحبوبة " عفراء"، ثم يسدل الموت على العاشقين ستار الختام فيموت " عروة " ، ويبلغ النبأ " عفراء " فيشتد حزنها عليه ، وتظل تندبه وتبكي حتى يطويها الموت بعده بقليل .

هذه هي أقدم قصة في الحبّ العذري وصلت إلينا ، فكانت في عصر " بني أمية " ، وهى بحق تمثل المعالم الأساسي لكل قصص الحبّ العذري ، على نحو من هذه الصورة التي رأينها في قصة " عروة " و " عفراء " كانت سائر قصص العذريين الأمويين، وهناك قصة " قيس بن الملّوح العامري " مع ابنة عمه " ليلى " ، وبدأت فى المرعي كما تبدأ قصص الحبّ : في البادية وهما حبيبان صغيران يرعيان ماشية أهلهما ، وكان مما قال فيها :

أقول لأصحابي : هي الشمس ضوءها قريب ولكن في تناولها بعد

لقد عارضتنا الريح منها بنفحة على كبدي من طيب أرواحها برد

فما زلت مغشيا علي، وقد مضت أناة وما عندي جواب ولا رد [1]

وقد شهد " الحجاز " مأساة أخرى من مآسي الحبّ العذري، وكانت بين " قيس بن ذريح " وصاحبته " لبنى " ؛ فقد أحب " قيس بن ذريح " " لبنى " بنت الخباب " ، وهو مضري من " كنانة " ، وهى يمنية من " خزاعة " : تجمع بينهما صلة نسب من جهة الأم؛ فقد كانت أم قيس خزاعية ، ومنازل خزاعة في ضواحي " مكة " وفى إحدى زياراته لأخواله الخزاعيين رأي " قيس " لبنى " وقد مرّ بجانبها ، فاستقاها فسقته ، وأعجبته ، فأحبها ، ثم تردد عليها وشكَى لها حبّه فأحبته ، ومضى إلى أبيه ليخطبها له ، فأبي وقد كان أبوه غنياً كثير المال ، وكان قيس وحيده ، فأحبّه أن لا يخرج ماله امرأة غريبة ، وقال له : " بنات عمك أحق بك " فمضى إلى أمه يسألها أن تذلل له هذه العقبة لدى أبيه ، فوجد عندها ما وجده عند أبيه

---

(1) ذاته ص٣٠ ، الآمالي : لأبي على العالي البغدادي ص٣ ، ص١٥٧ ، وما بعدها .

يعنى أنها زمضـــت ، ولجأ قيس إلى " الحســـين بن على "ي" وكان أخاً في الرضـــاع ، أرضـعته " أم قيس " معه ووسط في الأمر ، وكان طبيعياً أن تكلل وساطة " سيدنا " الحسـين " ا" بالنجاح ويمضى. " الحسـين " إلى الخباب ، والد " لبنى " ثم مضى إلى " ذريح " والد " قيس " واسـتطاع " الحسـين بن على" أن يجمع بين العاشـقين برباط الزوجيـة ، ويحقق " لقيس بن ذريح " أملـه بيـد أن القـدر أبي إلا أن يعكر صـــفو حياتهما وسـعادتهما ، فلم تمضى. عليهما سـوى سـنوات قليلة ؛ فقد كانت " لبنى " عـاقراً لا تنجـب ، وخشي ــ أبواه أن يصـــير مالهما إلى " الكلالة " فأراد له أن يتزوج بغيرها بغية الإنجاب ليحفظ مالهما .

وهنا يرفض " قيس " أن يطلق زوجته الحبيبة ، فالأبوان مصممان على طلاق " لبنى وقيس " مصـمم على التمسـك بها ، وأقسـم أبوه ألا يظلهما سـقف حتى يطلقها ، فكـان أبوه يخرج ويقف فى حر الشـــمس ، وكـان " قيس " يقف إلى جـانبـه ويظله بردائه .

ويـدخل إلى " لبنى " فيعانقها وتعانقه ، ويبكي وتبكي معه ، ويتعاهدان على الوفاء ، ويجتمع على " قيس " قومه يلومونه ، ويحذرونه من غضـب الله عليه ؛ لعدم طاعة والـديـه ، وما زالوا به حتى طلق زوجه ومحبوبته ، وترحل " لبنى " إلى قومها في " مكة المكرمة " ، ويجزع " قيس " جزعاً شـديداً ، وتحولت حياته إلى حزن وآسـف لا ينتهي ، وندم لا ينقطع ، ودموع لا تغيض ، وحسرـات ليس لها حد ، ولم يجد أمامه سوى شعره ؛ يبث فيه أسفه وندمه ، ودموعه وحسراته فيقول :

يـقولون : لبنى فتنـة كنـت قبلهـا   بـخير فـلا تـنـدم عـليـهـا وطـلـق

فطاوعت أعدائي وعاصـيت ناصـحي   وأقـررت عـين الشـــامـت المتملق

وددت وبـيـت الله أني عصـــيـتـهم   وحملـت في رضـــوانهـا كـل موثق

ويقول أخرى :

وفـارقـت لـبـنـى صـــلّـة فكـأنني ... قُـرِنـتُ إلى الـعَـيّـون ثـم هـويـتُ

فـيـا لـيـت أني مـتّ قبـل فراقهـا ... وهـل تَرْجِعَنْ فَوْتَ القضـــيـةِ ليـتُ

فصرـت وشـــيخي كـالذي عَثَرَتْ به ... غـداة الوغى بين العُـدَاة كُمَيْـتُ [١]

فالصــورة العامة للحب العذري تتلخص في أنه " حُبّ روحي" يأخذ شـكل مأســاة حزينة بدايتها أمل ، ونهايتها يأس ، تدور أحداثها بين عاشـقين تسـيطر على حبهما العفة والإخلاص ، والتوحيد ، والحرمان .

فهو حب عفيف طاهر لا سلطان لشهوات الجسد ،أو نوازع الغريزة عليه .

فهو حب تسيطر عليه عاطفة تتسامي على الغرائز والشهوات ، ولا تجعل لها سبيلاً إليهـا ، وليس معنى هـذا أنه حب يلغي الجســد إلغاءاً تاماً ، فإن هذا لا يتفق مع طبيعة الحياة ، ولا يستقيم مع واقع الصلة بين العواطف والغرائز الطبيعية البشرية والأمر الذي لا ريب فيه أن حب الجســد دافع من الدوافع إلى هذا الحب ، كما أنه هدف من أهدافه .

وهـذا لون من ألوان الحـب العـذري العفيف ، والطاهر النظيف ؛ حيث كان " عبد الرحمن " الملقب " بالقس " عند أهل " مكة " بمنزلة " عطاء بن رباح " في العبادة ، وإنه مر يوماً " بسلامه " ؛ وهى تغنى فقام يستمع غناءها .

فرآه مولاها فقال له : " هل لك أن تدخل فتســمع ؟ ، فأبى ولم يزل به حتى دخل ، فقال له أوقفك في موضع بحيث تراها ولا تراك ، فغنته فأعجبته ، فقال له مولاها : هـل لـك أن أحوّلهـا إليـك؟ ، فتـأبى ذلـك عليـه ، فلم يزل بـه حتى أجابه ، فلم يزل يسمعها ويلاحظها النظر حتى شغف بها

---

(١) ذاته ص٣٥ .



ولما شعرت لحظة إياها غنته هذه الأبيات

ربّ رســـولـين لـنـا بـلـغـا رســـالـة مـن قـبـل أن يـبرحـا

قال فأغمى عليه ، وكاد أن يهلك ،

فقالت له يوماً : والله إني أحبك .

فقال لها : وأنا والله أحبك .

قالت : وأحب أن أضع فمي ....

قال : وأنا والله ....

قالت : فما يمنعك من ذلك .

قال : أخشي أن تكون صداقة ما بيني وبينك اليوم عداوة يوم القيامة ثم نهض وعاد إلى طريقه التي كان عليها ، وأنشد يقول :

قـد كنـت أعـذل في الســفاهة أهلها فـأعـجـب لمـا تـأتي بـه الأيـام

فـالـيـوم أعـذرهـم وأعـلـم إنمـا ســبـل الضـلالـة والهـدى أقســام

وله فيها :

إِنَّ سَـــلامَـــةَ الَّـــتِـــي أَفْـــقَـــدَتْـــنِـــي تَـــجَـــلُّـــدِي

لَـوْ تَـرَاهَـا وَالْـعَـوْدُ فِي حِـجْـرِهَـا حِـــينَ يـــبـــدو وتَـــبْـــتَـــدِي

لـــجـــريـــر وَالْـــغَـــرِيـــضُ وَلِـــلْـــقَـــوْمِ مَـــعَـــبْـــدِي

خِـلْـتُـهُـمْ تَـحْـتَ عُـودِهَـا حِـينَ تَـدَعُـوهُ بِـالْـيَـدِ [1]

([1]) العقد الفريد : لأبن عبد ربه الأندلسي ، ص٧ ، ص١٤ ، وما بعدها الأغاني ص٨ ، ص٦

وفى " رواية الأغاني " إنهما اجتمعا يوماً فقالت له سلاّمه : أنا والله أحبك .

قال : وأنا والله أحبك .

قالت : وأحب أن أضع فمي على فمك .

قال : وأنا أحب ذلك ، وهكذا من شيء إلى شيء حتى البطن والصدر ، وهو يقول : وأنا أحب ذلك .

قالت : وما يمنعك ؟ فو الله إن الموضع لخالٍ .

قال : إني سمعت الله " عز وجل " يقول : الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ [سورة الزُّخرُف: الآية ٦٧] ، ونحن لا نميل كثيراً إلى هذا الكلام حيث إن " القس " في عبادته " بعطاء بن رباح" فهو كلام طفولة بلهاء ، وصاحبانا كبيران فوق ما فيه مما يناقض طبيعة المرأة مهما تبدلت وفسقت ، فالرجل هو الطالب لها دائماً والراغب فيها ، وهى الممتنعة دائماً وإن أرادت ذلك وعشقته ، وطعمت فيه وأحبته

الحُبّ :

الحبُّ نفحة ربانية لا يكاد يخلو من تنسمها إنسان ، وأجمل ما في الحب أن يكون متبادلاً ، والمأساة فيه ألا يودك من تهواه ، كقول الأعشى :

جننا بليلي وهى جنت بغيرنا ... وأخرى بنا مجنونة ما نريدها

ويقول " الشافعي " : " كانت لي امرأة ، وكنت أحبها ، فكنت إذا دخلت عليها أنشدت أقول :

أو ليس برحاً أن تحب ... ولا يحبك من تحبه

قال : فترد هي عليّ :

فيصعد عنك بوجهه ... وتلجّ أنت فلا تغبّه [1]

([1]) مصارع العشاق : للسراج ، ص٢ ، ٢٠٤ ، وما بعدها .



وفى عالم الحُبّ ، ودنيا العاطفة صورتان من صور الحُبّ :

الأولى : حُبّ حسي يُفتن فيه الرجل بالمرأة من حيث هي أنثى تحقق له المتعة واللهو وإرضاء الحواس ، فتنة تدفعه إلى طلب الجنس الآخر في عمومه ؛ حيث إنه يرى فيه الوسيلة لتحقيق متعته ولهوه ، وإرضاء حواسه ، فالمرأة لديه ليست غاية للحُبّ ، وكذلك وسيلة إليه وهو لهذا لا يقف حبّه عند واحدة يهب لها قلبه وحبه ، وإخلاصه ، ووفاءه ؛ ولكنه ينتقل من واحدة .

والحب هو أصل الهوى ، والهوى الذي يتفرع منه العشق ، والعشق هو الذي يهيم به الإنسان على وجهه ، أو يموت كمداً على فراشه ، وأول ذلك :

إدخال القيم على مروءته ، واستشعار الزلة لمن أطاق بعشيقته ، ويتشعب من أصل الحب " الرحمة والرأفة ، وحب الأموال النفيسة ، والمراتب الرفيعة ، وحب الرعية للأئمة ، وحب المصطنع لصاحب الصنعة ، مع اختلاف مواقع ذلك من النفوس وما تفاوت طبقاته في العواقب .

والعِشْق اسم لما فضل عن المقدار الذي يسمى بالحب ؛ فليس كل حب يسمى عشقاً وغنما العشق اسم للفاضل عن ذلك المقدار ، كما أن الشرف اسم لما زاد عن المقدار الذي يسمى جواداً، والخجل اسم لما نقص عن المقدار الذي يسمى اقتصاداً ، والجبن اسم لما نقص عن المقدار الذي يسمى شجاعة ، وقد قال " عروة بن الزبير " : " والله إني لأعشق الشرف كما تعشقه المرأة الحسناء، وذكر بعض الناس رجلاً كان مدقعاً محروماً ، ومنحوس الحظ ممنوعاً ، فقال : " ما رأيت أحد عشق الرزق عشقه ، ولا أبغض الرزق بغضه " ! ، فذكر الأول عشق الشرف ، وليس الشرف بامرأة وذكر الآخر عشق الرزق ، والرزق اسم جامع لجميع [1] الحاجات ، والحب أوله هزل وآخرة جد رقت معاينه لجلالتها عن الوصف فلا يدرك حقيقتها إلا بالمعاناة ، وليس بمنكر في الديانة ، ولا بمحظور في الشريعة ؛ حيث أن القلوب بيد الله " عز وجل " يحركها ويقلبها حيث يشاء .

---

(1) رسائل الجاحظ : ص٣ ، ١٣٩ ، وما بعدها .

علامات الحبّ

إن للحبّ علامات ، وللحبيب فيه أمارات وعلامات وسـمات، والعين باب الشـارع ، فترى النـاظر لا يطرف ، يتنقـل بتنقـل المحبوب ، ويرتوي بارتوائه ، ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس ، يقول الشاعر :

وإذا قمـت عنـك لم أمـــش إلا مشيـ عـان يـقـاد في نحو الفنـاء

في مـجيئي إليـك أحتّـث كـالبـدر إذا كـان قـاطعـاً لـلسـمـــاء

وقيـامي إن قمـت كـالأنجم العـاليـة الـثـابـتـات في الإبـــطــــاء

ومن علامات الحبّ ، وشـواهده الظاهرة لكل ذي بصر ، هو الانبساط الكثير الزائد في المكان الضـيق ، والتضايق في المكان الواسع والمجاذبة على الشيء بأخذه أحدهما ، وكثرة الخمز الخفي، والميـل بـالاتكـاء ، والتعّمـد لمس اليـد عنـد المحادثة ، ولمس ما أمكن من الأعضـاء الظاهرة ، وشرب فضلة ما أبقى المحبوب في الإناء، وتحرى المكان الذي يقابله فيه .

ومن علاماته أيضـاً حبّ الوحدة ، والأنس بالانفراد والسـهر من أعراض المحبين وقد أكثر الشـــعراء في وصـــفـه وحكوا أنهم رعاة الكواكب ، ووصـــفوا طول الليل يقول الشاعر:

تعلمـت السـحـائـب من شـؤوني فعمـت بـالحيـا السـكـب الهتون

وهـذا الـليـل فـيـك غـدا رفـيقي بـذلـك أم عـلى سـهـري مـعـيـني

فـإن لم يـنـقـض الإظـلام ألا مـا مـا أطـبـقـت نـومـاً جـوفـوني

كـأن نجومه والغيم يخـــفـــي سـنـاهـا عـن مـلاحـظـة الـعـيون

ضـــمـيري في ودادك يـا مـنـايـا فـليس يبين إلا بـالظـــنــــون

وفي مثل ذلك قطعة منها :

أرعى النجوم كأنني كلفت أن ... أرعى جميع ثبوتها والخنسي

فكأنها والليل نيران الجوى ... قد أضرمت في فكرتي من حندس

لو عاش بطليموس أيقن أنني ... أقوى الورى في رصد جرى الكنس

وللحبّ أسباب فمن أسبابه أني دخلت يوماً " على أبي السري عمار بن زياد " صاحبنا مولى المؤيد فوجدته مفكراً مهتماً، فسألته عما به ، امتنع ساعةً ثم قال : رأيت في نومي الليلة جارية فاستيقظت وقد ذهب قلبي فيها وهمت بها ، وإني لفي أصعب حال من حبها ، ولقد بقي أياماً كثيرة تزيد على الشهر مغموماً لا يهنئة شيء وجدا إلى أن لمته ، وقلت له : من الخطأ العظيم أن تشغل نفسك بغير حقيقة ، وتعلق وهمك بمعدوم لا يوجد ، هل تعلم من هى ؟ قال : لا والله .

قلت : إنك لقليل الرأي مصاب البصيرة ؛ إذ تحب من لم تره قط ولا خلق ، ولا هو في الدنيا ، ولو عشقت صورة من صدر الحمام لكنت عندي أعذر ، فما زلت به حتى سلا وما كاد .

وهذا عند من حديث النفس وإضغانها ، وداخل في باب التمني وتخيل الفكر ، وفى ذلك أقول شعراً منه :

يا ليت شعري من كانت وكيف سرت ... أطلعة الشمس كانت أم هي القمر

أظنه العقل أبداه تدبره ... أو صورة الروح أبدتها لي الفكر

أو لم يكن كل هذا فهي حادثة ... أتى بها سبباً في حتفي القدر

وقالوا في ذلك شعراً :

ويا من لامني في حب من لم يره طرفي
لقد أفرطت في وصفك لي في الحب بالضعف
فقل هل تعرف الجنة يوماً بسوى الوصف

وهناك حبّ من نظرة واحدة ؛ وهو ينقسم إلى قسمين :

فالقسم الواحد فخالف للذي قيل هذا ، وهو أن يحب المرء صورة لا يعلم من هي ، ولا يدرى لها أسماً ولا يعرف لها مستقراً[1] .

الحُبّ في النوم

لا بد لكل حُبّ من سبب يكون له أصلاً، فمن أسبابه الرؤيا المنامية ؛ حيث يروى أن رجلاً دخل على أبي السري عمار مولي المؤيد ، فوجده مفكراً مهتماً فسألته عما به فقال : " رأيت في نومي الليلة جارية فاستيقظت وقد ذهب قلبي فيها وهمت بها وإني لفي أصعب حال من حبها ، ولقد بقي أياماً كثيرة تزيد على الشهر مغموماً حتى لمته وقلت له: من الخطأ العظيم أن تشغل نفسك بغير حقيقة ، وتعلق وهمك بمعدوم لا يوجد ، هل تعلم من هي؟

قال : لا والله .

قلت : إنك لقليل الرأي مصاب البصيرة ؛ حيث إنك تحب من لم تره قط ، ولا خلق ، ولا هو في الدنيا ، ولو أنك عشقت صورة من صور الحمام لكنت عندي أعذر ، فما زلت به حتى سلا وما كاد .

---

(1) طوق الحمامة : لأبن حزم الأندلسي : ص١٢ إلى ص٣١ .



وفي ذلك أقول شعراً :

يا ليت شعري من كانت وكيف سرت   أطلعة الشمس كانت أم هي القمــــر

أظنه الـــعـــقـــل أبـــداه تـــــدبـــره   أو صـــورة الروح أبدتها لي الفكــــــر

أو صـــورة مثلت في النفس من أملي   فقد تخيل في إدراكهـــا الـــبــــصــــر

أو لم يكن كل هـذا فـهـي حـادثة   أتى بها سبباً في حتـفـي الـقـدر [1]

الحُبّ بالوصف

ومن غريب أصـول العشـق أن تقع المحبة بالوصـف دون المعاينة ، وهذا أمر يترقى منه إلى جميع الحب ، فتكون المراسـلة والمكاتبة والهم ، والوجد ، والسـهر على غير الإبصـار، فإن للحكايات ووصـف المحاسن ووصف ، الأخبار تأثيراً في النفس ظاهراً ، وأن تسـمع نغمتها من وراء جدار ، فالأذن تعشـق قبل العين أحياناً ، فيكون سـبباً للحب واشتغال البال .

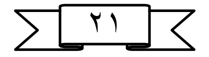
يقول الشاعر فى هذا المعنى :

ويـا مـن لامـنـي في حـب   مـن لم يـره طـرفي

لـقـد أفـرطـت في وصـفـك لي   في الـحـب بـالضـعـف

فـقـل هـل تـعـرف الـجـنـة   يـومـاً بسـوى الـوصـف

(1) طوق الحمامة : لأبن حزم الأندلسي : ص٢٧ بتصرف .



ويقول أيضاً في استحسان النغمة :

قـد حـل جـلـيـش الغرام ســمعي   وهـو عـلى مـقلتـــــي يبــــــدو

ويقول أيضاً:

وصـــفوك لي حتى إذا أبصرـــت مـا   وصـفوا علمت بـــأنـــه هـــذيان

فالطبل جلد فـارغ وطـنـينـه   يرتاع منه ويفـــرق الإنـــســـــان

الحُبّ من أول نظرة

إن كثيراً ما يكون لصوف الحب بالقلب من نظرة واحدة ، وهو أن يعشق المرء صورة لا يعلم من هي ، ولا يدري لها أسـماً، ولا مسـتقراً ، وقد حدث ذلك كثير ويروى أن يوســف بن هـارون والمعروف " بـالرمـادي " كـان مجتـازاً عنـد بـاب العطـارين " بقرطبة"، وهذا الموضع كان مجتمع النساء ، فرأى جارية أخذت بمجامع قلبه، وتخلل حبُّها جميع أعضـائه ، فانصرـف عن طريق الجامع وجعل يتبعها وهي ناهضـة نحو القنطرة ، فجازتها إلى الموضـع المعروف بالربض ، فلما صارت بين رياض " بني مروان المبنيـة على قبورهم في مقبرة الربض خلف النهر نظرت منـه منفرداً عن النـاس لا هدف ولا غرض له إلا هي فانصرفت إليه.

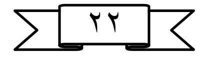
فقالت له : مالك تمشي ورائي ؟ ، فأخبرها بعظيم بليته بها .

فقـالـت لـه : دع عنك هذا ولا تطلب فضـــيحتي فلا مطمع لك في النية ، ولا إلى ما ترغبه سبيل .

فقال : إني أقنع بالنظر

فقالت : ذلك مباح لك

فقال لها : يا سيدتي : أحرة أم مملوكة ؟



قالت : مملوكة

فقال لها : ما اسمك ؟

قالت : خلوة

قال : ولمن أنت ؟

فقالت له : علمك والله بما في السـماء السـابعة أقرب إليك مما سـألت عنه ، فدع المحال.

فقال لها : يا سيدتي، وأين أراك بعد هذا ؟

قالت : حيث رأيتني اليوم في مثل تلك الساعة من كل جمعة.

فقالت له : إما أن تنهض أنت وإما أن أنهض أنا .

قال أبو عمرو: وهو يوسـف بن هارون : فو الله لقد لازمت باب العطارين والربض من ذلك الوقت إلى الآن ، فما وقعت لها على خبر ولا أرى أسـماء لحسـتها أم أرض بلعتها ، وإن في قلبي منها لأحر من الجمر ، وهي خلوة التي يتغزل بها في أشعاره . وفي ذلك يقول :

عيني جنـت في فؤادي لوعـة الفكر	**فأرسـل الدمع مقتصـاً من البصر**
فكيف تبصر فعل الدمع منتصفاً	**منها بإغراقها في دمعها الـدرر**
لم ألقها قبل إبصاري فأعرفـهـا	**وآخر العهد منها سـاعة النظـر** [1]

---

(1) ذاته : ص٣١ . بتصرف .



التعريض بالقول

لابد لكل مطلوب من مدخل إليه ، وسبب يتوصل به نحوه فأول ما يستهل طلاب الوصل ، وأهل المحبة في كشف ما يجدونه إلى أحبتهم (التعريض بالقول) وذلك بإنشاد الشعر ، أو إرسال مثل ، أو طرح لغز ، أو تسليط كلام ، والناس في ذلك يختلفون على قدر إدراكهم حسب ما يرونه من أحبتهم من أنس نفار ، أو بلادة أو فطنة ، ومن التعريض بالقول جنس ثان ، ولا يكون إلا بعد الاتفاق ومعرفة المحبة من المحبوب ، وحينئذ يقع التشكي وعقد المواعيد وأنا اعرف فتى وجارية : كانا يتحابان ، فأرادها في بعض وصلها على بعض ما لا يجمل ، فقالت : والله لأشكونك في الملأ علانية ولأفضحنك فضيحة مستورة ، فلما كان بعد أيام حضرت الجارية مجلس بعض أكابر الملوك ، وأركان الدولة وأجل رجال الخلافة ، وفيه ممن يتوقى أمرهم من النساء والخدم عدد كثير ، وفي المجلس مغنيات غيرها ، فلما انتهى الغناء إليها سوت عودها ، واندفعت تغني بأبيات قديمة وهي :

غزال قد حكى بدر التمام ... كشمس قد تجلت من غمام

سبى قلبي بألحاظ مراض ... وقد الغصن في حسن القوام

خضعت لخضوع صب مستكين ... له وذللت ذلة مستهام

فصلني يا فديتك في حلال ... فما أهوى وصالاً في حرام

عتاب واقع وشكاة ظلم ... أتت من ظالم حكم وخصم

تشكت ما بها لم يدر خلق ... سوى المشكو ما كانت تسمي [1]

---

(1) ذاته : بتصرف ، ص٤٠ .

الإشارة بالعين

ويجئ بعد التعريض بالقول الإشارة بالعين ، وإنه ليقوم في هذا المعنى المقام المحمود ، ويبلغ المبلغ العجيب ، ويقطع به ويتواصل ، ويوعد ويهدد ، ويقبض ويبسط ، ويمر بيها ، ويضحك ويحزن ، ويسأل ويجاب ، ويمنع ويعطى ، ولكل واحدة من هذه المعاني ضرب من هيئة اللحظ لا يقف على تحديده إلا بالرؤيا ، ولا يمكن تصوره ، ولا وصفه إلا بالأقل منه .

فالإشارة بمؤخر العين الواحدة نهي عن الأمر ، وتفتيرها إعلام بالقبول ، وإدامة نظرها دليل على الأسف والتوجع ، وكسر نظرها آية الفرح ، والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد ، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتهما سؤال ، وقلب الحدقة من وسط العين إلى الموجه ؛ وهو طرف العين مما يلي الأنف ؛ وهو مجرى الدمع وتجمع على الأماني شاهد المنع ، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهي عام ، وجميع ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة .

وأعلم أن العين تنوب عن الرسل ، ويدرك بها المراد ، والحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس ، والعين أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملاً .

وهي رائد النفس الصادق ، ودليلها الهادي ، ومرآتها المجلوة التي بها تقف على الحقائق وتميز الصفات وتفهم المحسوسات ، وقد قيل : ليس المخبر كالمعاين ، وقد ذكر ذلك "أفليمون " صاحب الفراسة وجعلها معتمدة في الحكم [1] .

---

(1) ذاته : ص٤١ .



المراسلة

ولقد رأيت أهل هذا الشـأن يبادرون لقطع الكتب وبحلها في الماء ويمحو أثرها قرب فضيحة كانت بسبب كتاب وفى ذلك أقول:

عـزيـز عـلي الـيـوم قـطـع كتـابكم ولـكـنـه لم يـلـف لـلـود قـاطـع

فـآثـرت أن يـبـقـى وداد ويـنمحي مـداد فـإن الـفرع للأصـــل تـابع

فـكـم مـن كتـاب فيـه ميتـة ربـه ولم يدره إذ نمقته الأصابع [١]

السفير

والمراد بالسفير " الوسيط " ويقع في ذلك في الحبّ بعد حلول الثقة ، وتمام الاستئناس ويجب على المحب تخير السـفير ؛ فهو دليل عقل المرء ، وبيده حياته وموته ، وستره وفضـيحته ؛ فينبغي أن يكون الرسـول ذا هيئة ، حاذقاً يكتفي بالإشارة ، ويؤدي إلى الـذي أرســله كل ما يشـــاهد على وجهه ؛ فهو كاتماً للأسرار ، حافظاً للعهد ، قنوعاً ناصحاً ، ومن تعدى هذه الصـفات كان ضرره على باعثه بمقدار ما نقصه منها ، وفى ذلك يقول الشاعر :

رســولك ســيف في يمينك فاســتجد حســاماً ولا تضرــب به قبل صــقله

فمن يـك ذا ســيف كهـام فضرـه يعود على المعني منه بجهله [٢]

---

(١) ذاته : ص٤٣ .
(٢) ذاته : ص٤٥ .



فضل التعفف

من أفضل ما يأتيه الإنسان في حبه التعفف ، وترك ركوب المعصية والفاحشة ، وألا يرغب عن مجازاة خالقه له ، وإن من هام قلبه ، وشغل باله ، واشتد شوقه ، وعظم وجده ، ثم ظفر فرام هواه أن يغلب عقله وشهوته ، أن يقهر دينه ، ثم أقام العدل لنفسه حصناً ، وعلم أنها النفس الأمارة بالسوء ، وذكرها بعقاب الله " تعالى " وفكر في اجترائه على خالقه وهو يراه ، وحذرها من يوم المعاد والوقوف بين يدي الملك العزيز الشديد العقاب الرحمن الرحيم الذي لا يحتاج إلى بينة ، ونظر بعين ضميره إلى انفراده عن كل مدافع بحضرة علام الغيوب

فكيف بمن طوي قلبه على أحر من جمر الغض، على أحد من السيف ، وتجرح غصصاً أمر من الحنظل ، وصرف نفسه كرها ؛ عما طمعت فيه وتيقنت ببلوغه وتهيأت له ولم يحل دونها حائل لحري أن يسر غداً يوم البعث ، ويكون من المقربين في دار الجزاء وعالم الخلود ، وأن يأمن روعات القيامة وهول المطلع، وأن يعوضه الله من هذه القرحة الأمن يوم الحشر .

ويروى أن أبا موسى " هارون بن موسى الطبيب" قال : رأيت شاباً حسن الوجه من أهل " قرطبة " قد تعبد ورفض الدنيا ، وكان له أخ في الله قد سقطت بينهما مؤونة التحفظ ، فزاره ذات ليلة وعزم على المبيت عنده ، فعرضت لصاحب المنزل حاجة إلى بعض معارفه بالبعد عن منزله ، فنهض لها على أن ينصرف مسرعاً ، وتزل الشاب في داره مع امرأته ، وكانت غاية في الحسن وترباً للضيف في الصبا ، فأطال رب المنزل المقام إلى أن مشى العسس ولم يمكنه الانصراف إلى منزله ، فلما علمت المرأة بفوات الوقت وأن زوجها لا يمكنه المجيء تلك الليلة تاقت نفسها إلى ذلك الفتى فبرزت إليه ودعته إلى نفسها ، ولا ثالث لهما إلا الله " عز وجل " ، فهم بها ثم ثاب إليه عقله ، وفكر في الله " عز وجل " فوضع إصبعه على السراج فتفقع ثم قال : يا نفس ، ذوقي هذا وأين هذا من نار جهنم فهال المرأة ما رأت ثم عاودته ، فعاودته الشهوة المركبة في الإنسان ، فعاد إلى الفعلة الأولى ، فانبلج الصباح وسبابته قد اصطلمتها النار .

أفتظن بلغ هذا من نفسه هذا المبلغ إلا لفرط شهوة قد كلبت عليه ؟ أو ترى أن الله " تعالى " يضيع له هذا المقام ؟ كلا إنه لأكرم من ذلك وأعلم [1] .

ويروى أن امرأة علقها فتى مثلها في الحسن وعلقته وشاع القول عليهما ، فاجتمعا يوماً خـالين فقـال : هلمي نحقق ما يقال فينا ، فقالت : لا والله لا كان هذا أبداً ، وأنا أقرأ قول الله الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ [سورة الزُّخرُف: الآية ٦٧]، قالت فما مضى قليل حتى اجتمعا في حلال [2] .

ويروى عن " سـعيد بن المسيب " أنه قال : وضع عمر بن الخطاب للناس ثماني عشر كلمة من الحكمة منها :

ضع أمر أخيك على أحسنه حتى على ما يغلبك عليه .

ولا تظنن بكلمة خرجت من مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً .

فهـذا أعزك الله أدب ، وأدب رســوله " ﷺ " ، وأدب أمير المؤمنين وبالجملة فإني لا أقول بالمرايات ، ولا أنسك نسكاً عجيباً

ومن أدى الفرائض المأمور بها ، واجتنب المحارم المنهي عنها ، ولم ينسىـ الفضل فيما بينه وبين الناس فقد وقع عليه اسم الإحسان ، ودعني مما سوى ذلك وحسبي الله

---

(١) ذاته : ص١٥٠ ، وما بعدها بتصرف .

(٢) ذاته : ص١١٥ ، بتصرف .

الغِنَاء

إن للغناء صلة كبيرة بالشعر ؛ فالغناء تعبير موسيقي، والشعر تعبير لفظي ، فما لا يختلفان في بدء نشأتهما ؛ لأن معنيهما واحد وهو الإحساس ، على اختلاف ألوانه ، وغايتهما واحدة ؛ وهو التعبير فالمعني قد يترنم بألفاظ ، ويتغني بعبارات دون أن يكون لهذه الكلمات صلة بالشعر كتعبير له أصوله وقواعده؛ ولأن العاطفة تخلق في الإنسان قبل أن تخلق فيه القدرة على التعبير إذاً فالغناء منبع للشعر وأصل له ؛ فالشعر غناء تهذب وارتقى مع تطور الأزمان ، واتساع مرافق الحياة .

لهذه الصلة الوثيقة بين الغناء والشعر يجبرنا الحديث إلى ما بين الشاعر والمغني من صلة ، وعلاقة كل واحد منهما بالآخر .

إن الغناء كعاطفة يعبر عنها بأي لون من ألوان التعبير سابقة للشعر كتعبير فني له أصول وقواعد ، وعلى هذا يكون "المغنّى " قد سبق الشاعر في الوجود ؛ والمغنى هو كل من ترنم ، أو تغني بألفاظ تعبر عن معنى ، أو بأصوات توقيعية تعبر عن إحساس ، وهو بهذا المعنى موجود منذ وجد الإنسان على ظهر الأرض ، وأن ينفرد الإنسان بهذه الميزة وحده ، بل إن من الحيوانات ما عرف بالحنان ورقة القلب مثل الإبل " ، ومن الطيور العاطفية : " الحمام " .

ويحدثنا تاريخ الأدب أن بعض شعراء اليونان كانوا يغنون بشعرهم ، وأن الأدب العربي حين تسرب من الأندلس إلى أوربة أوجد فيها طائفة من الشعراء المغنيين ؛ الذين كانوا يطوفون بالبلاد، ويغنون الناس بأشعارهم .

بيد أن تاريخ الأدب العربي لم يحدثنا عن مثل هذا الشاعر من شعراء العرب ، فنحن لا نعرف شاعراً جاهلياً أو غير جاهلي كان يتغنى بشعره ، اللهم إلا ما ورد من شعر " الأعشى " ؛ كان يتغني به في أنحاء الجزيرة العربية ، وإن بعضاً من نساء العرب كن يغنين لأطفالهم بعض الأراجيز ، وتاريخ الأدب الجاهلي غامض كل الغموض ؛ لذلك لم يستطيع الباحثون أن يحققوا من إلا ما كان قبل الإسلام بنحو قرن ونصف قرن يعنى خمسون ومائة سنة .

الغناء في الجاهلية

لعل الدواعي التي أدت إلى نبوغ العرب في الشـعر ؛ هي نفس الدواعي التي حببّت الغناء إليهم ، ونشرـته في جزيرتهم ، فهدوء الصـحراء واتسـاعها ، وفرحهم بالمطر والسـحاب ، وتمجيدهم للناقة والفرس ، وغرامهم بالفروسـية والبطولة ، ونشأتهم في الحروب والغارات ، وتفاخرهم بالأحساب والأنساب ، والمروءة والكرم ؛ كل ذلك مع ما بهم من سـعة الخيال ، وحدة العواطف ؛ كل ذلك كان دافعاً ، وحافزاً إلى التغني بالشعر في مجالسهم .

كذلك كانت للأديرة التي كانت منتشرـة بالجزيرة العربية ، والشـام والحيرة ؛ الفضل الأول في تسرب الغناء للعرب وتعشقهم إياه .

كـذلـك كـان للشرـاب في الحيـاة الجاهلية أثر عميق في اسـتخفاف العربي وهيجة خواطره ؛ فحن إلى الغناء وطلبه ، وسـافر إليه في كل مكان ، كما كان حبهم للمرأة والسـعي وراءها ، والحنين إليها واستمداد القوة الروحية منها ورحيلهم للتجارة ، أو التنقـل بقوافـل الإبل ؛ كان من أقوى الدوافع إلى تعشـقهم الغناء كغية جميل فيه تنفيس وتفريج .

وأول فنون الغنـاء لـديهم هو " الحداء " ولم تكن مادة الغناء لدى العرب سـوى " الشـعر " ، وقد كان من المفهوم أن يكون الغزل هو الفن الشعري الذي يسيطر على الغناء ، ويستوعبه لما فيه من رقة لفظية وتعبير عن الوجدان ، وتصوير الإحساس .

بيـد أن الأمر كان على عكس ذلك في الغناء العربي حتى في العصرـ الذي نشـأ فيه الغزل العفيف في البادية ، والغزل الإباحي الذي أسس مدرسته " عمر بن أبي ربيعة وأضرابه ؛ فقد كان شـعر المديح والفخر والحماسـة ، هو مادة الغناء الأولى ؛ ولعل ذلك يلفت أنظارنا إلى أن الوجدان العربي كان أصـيلاً في الفخر والحماسة أكثر منه في الغزل ، والتشـبيب بالنسـاء ، وأن الغناء لديهم لم يكن وسـيلة للعبث فحسـب ، بل كان جزءاً من حياتهم وتصويراً لميولهم وطبائعهم كما كان شعرهم .

والباحث عن الغناء في الجاهلية لا يجد منه إلا النادر جداً وإنه لتعترضـه الصـعوبة التي اعترضت مؤرخي الأدب حين أرخوا لهذا العصر .

وأمهات الكتب العربية الأدبية وأقواها حجة في هذا الباب هو كتاب " الأغاني " لأبي الفرج الأصفهاني " لم يحدثنا عن الغناء فى الجاهلية إلا بقدر يسير على أن في الشعر الجاهلي المعروف ما يثبت وجود الغناء ، وقد قال فريق من علماء الأدب " إن الشعر العربي كله غنائي " ، وفى الأغاني ما يشير إلى أنه كانت للعرب مجالس غنائية فيها الجواري وغيرهن ، فقد ورد في قصيدة " النابغة " التي قالها في وصف " المتجردة " زوج " النعمان "هذه الأبيات :

أزف الترحل غير أن ركابنا   لما تزل برحالنا وكأن قد

زَعَمَ الغداف [1] أنّ رِحْلَتَنا غَداً   وبذاكَ خبرنا من الغداف الأسود

لا مرحباً بغدٍ ولا أهلاً بهِ   إنّ كانَ تَفريقُ الأحبّةِ في غَدِ

واللافت للنظر في هذه الأبيات أن قافيتها دال مكسورة بيد أنها وردت بضم الدال مع وجوب كسرها في البيت الثاني وفطن قوم هذا الخطأ في شعر " النابغة واستعظموا هذا عليه ؛ فأرسلوا إلى جارية غنته هذه الأبيات ففطن النابغة إلى هذا الخطأ فأعاد البيت الثاني هكذا :

زَعَمَ الغداف بأنّ رِحْلَتَنا غَداً   وبذاكَ خبرنا من الغراب الأسود

وجاء في معلقة " طرفة بن العبد " ما ينبئ بوجود مجتمع من الشباب الجاهليين المترفين الذين ينهلون من الحياة ما يستطيعون ، فهم يقيمون على اللهو والمجون ، وهم يعاقرون الشراب ما طاب لهم العيش ، وحيث وجد الشراب وجد الغناء عادةً، ولا سيما عند العرب

---

(1) الغداف : الغراب .

فهو يرد على من يلومه في إنفاق حياته بين اللذائذ والشهوات والحروب فيقول :

أَلاَ أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضُرَ الوَغَى وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي

فَإِنْ كُنْتَ لاَ تَسْـطِيْعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي فَـدَعْنِي أُبَـادِرُهَـا بِمَـا مَلَكَـت يَـدِي

ويقول واصفاً قينه تغنيهم في مجلس غناء :

نَـدَامَـايَ بِـيْـضٌ كَـالـنُّـجُـومِ وَقَيْنَـةٌ تَـرُوحُ عَـلَـيْـنَـا بَيْنَ بُرْدٍ وَمَجْسَـــدِ

رَحِيْبٌ قِطَابُ الجَيْبِ مِنْهَا رَقِيْقَةٌ لجَسِّ النَّدامَى بَضَّةُ المُتَجَرَّدِ

إِذَا نَحْنُ قُلْنَا أَسْمِعِيْنَا انْبَرَتْ لَنا عَلَى رِسْلِهَا مَطْرُوقَةً لَمْ تَشَدَّدِ

إِذَارَجَّعَتْ فِي صَوْتِهَا خِلْتَ صَوْتَهَا تَـجَـاوُبَ أَظْـآرٍ عَـلَى رُبَـعٍ رَدِ

فهنا يـذكر " طرفـة " أن نـدمـاء في المجلس كـالنجوم ، وأن الجارية ترقص بينهم في لباس أبيض معصفر ، وأنها فسيحة الصدر رقيقة العاطفة ، ناعمة الملمس ، طيعة في غنائها المطرب كما يطرب نواح النياق على صغيرهن المفقود !

هذا وقد عرفت في الجاهلية جاريتان تسـميان " الجرادتين " فقد ذكر " أبو الفرج " أن " عبـد الله بن جدعان " كان سـيداً جواداً من قريش ، وكانت له مغنيتان هما " الجرادتان " وقد غنت كل منهما شعراً " لأبي قرعة الكناني " :

أقـفـر مـن أهـلـه مصـيـف فـبـطـن نـخـلـة فـالمصـيـف

هـل تـبـلـغـنـي ديـار قـومـي مـهـريـة سـيرهـا زفـيـف

يـا أم نـعـمان نـولـيـنـا قـد يـنـفـع الـنـائـل الـطـفـيـف

أعـمامـهـا الصـيّـد مـن لـؤي حـقـاً وأخـوالـهـا ثـقـيـف

وأتي إليه " أمية بن أبي الصلت " يوماً فامتدحه قائلاً :

أأذكـر حـاجـتـي أم قـد كـفـاني حـيـاؤك إن شـــيـمـتـك الـحـيـاء ؟

فـأرضـــك كـل مـكـرمـة بـنـاهـا بـنـو تـيـم وأنـت لـهـم ســـماء

فهل تخفى السماء على بصير وهـل بـالشـــمـس طـالعـة خفـاء

ورأى " ابن جـدعـان " أن " أميه " ينظر إلى " الجرادتين " بإعجاب وشـــوق فأهداه واحدة منهما ؛ ولكن قريشاً لاموه على ذلك فرجع يردها إليه ويقول :

عَـطـاؤُك زَيـنٌ لامرئٍ إن أَصـــبتَـه بـخـير ومـا كُـلّ الـعَـطـاءِ يَـزِيـنُ

وليس بعارٍ لامرئٍ بذلُ وجهه إليكَ كما بعضُ السؤالِ يَشينُ

فأمر " ابن جدعان " الجرادتين " فغنتا ، وما انتهي غناؤهما حتى أهداه الأخرى .

وكان " لحسـان بن ثابت " شعر كثير في الجاهلية غنته المغنيات والمغنون فى الإسلام وكـان معجبـاً " بعزة الميلاء " وقد اجتمع عندها يوماً بعد ذهاب بصرـه ، فســـمع جاريتين هما " رائقة وعزة " تغنيان شعره الذي أوله :

انـظـر خـلـيـلي بـبـاب جـلّـق هـل تـبصرـــ دون الـبلقـاء من أحـد [1]

لقد ذكرتني رائقة وصـاحبتها غناء ما سـمعته أذناي بعد ليلي جاهليتنا مع جبلة بن الأيهم :

لقـد رأيـت عنـده في مجلس غنـاء عشرـــ قيـان : فهم خمس منهن روميـات يغنين بـالروميـة ، وخمس يغنين غنـاء أهـل " الحيرة"، وكـان قـد أهـداهن إليه إياس بن قبيصـــة " ، وكـان يغـد إليه من يغنين من العرب من مكة وغيرها ، وكان إذا جلس للشراب فرش تحته " الآس والياسمين " وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب ، وأتى بالمسك الصحيح في صحاف الفضة ، وأوقد له العود المندي إن كان شاتياً ، وإن كان صائفاً بطن بالثلج .

(1) الجواري المغنيات : فايد العمروس : الطبعة الثالثة تصرف ، دار المعارف .

كيف نقل الغناء إلى الحرب

يقول الأســتاذ " فايد العمروسى ": نســتطيع أن نقول : إن الغناء في الجاهلية على قلة ما ورد عنه من الأخبار كان يجرى على الفطرة كالشـعر ، فلم تكن له أصول ، أو قواعد كفن له حظره وإنما كان في ذلك الفرس الذين كانوا يسـمون الغناء أدباً ، وفى الروم كانوا يسـمونه فلسـفة ، وكذلك تكن آلات الغناء محملة الصـنعة ولا دقيقة التركيب ، والمشهور من غناء الجاهلية غير الشعر هو الحداء والنشيد .

ولما كـان العرب مجـاورين للفرس والروم ، ولهـاتين الـدولتين غناء منظم معروف ، اسـتطاع بعض المغنين العرب أن ينقلوا إلينا الألحان الفارسـية والرومية ، ويصـنعوا عليها غناء عربياً .

مواطن الغناء

كـان الغنـاء في الحجـاز مسرـفاً في اللهو والمجون ، وكان رقيعاً خليعاً ؛ ذلك لما عرف به الحجـاز دون من رقـة الطبع والعذرية ، ولما كان عليه من الرخاء والترف ، ولانقطاعهم عن الدولة الأموية ؛ حيث كانوا بمنأى عن مركز الخلافة ، فلم تكن لهم صلة بالسياسة ، وليسـوا على علم بما يجرى بالشـام والعراق ، من الكفاح والنضـال الحربي على أن " معـاويـة " عرف كيف يتقى شرهم فأمدهم بالأموال ، وأغدق عليهم الخيرات ؛ فمكثوا في الحجاز راضين بالهدوء واللهو والقول والغناء .

وما أن اسـتقرت الدولة الأموية واتسـع سلطانها حتى بدأ الغناء يتجول من الحجاز إلى عواصـم الخلفاء رويداً رويداً ، ثم تركز نهائياً وتضـخم في العصرـ العباسي وخاصـةً في " بغداد " وأصـبح " العراق " كعبة الفصـحاء من الشـعراء والعلماء والمغنين فوق ما كان سـوقاً هائلة تضـج بالأجناس المختلفة من فرس ، وعرب ، وهنود ، وروم ، وقد ارتقت الحيـاة الاجتماعيـة وعم الرخـاء فـأمعن النـاس في اللـذائـذ ، وبـالغواني مظـاهر الترف والنعيم، بين الشراب والغناء ، وانتهاب الملذات ، والإغراق في الشهوات

وقـد كان الغناء يســير مع الأدب جنباً إلى جنب ؛ لذلك كان الغناء الأموي ذا صــبغة عربية بحته ؛ رغم ما اقتبسه من الألحان الرومية والفارسية ، لم تكن الحياة العربية في عهد الأمويين قد اتســعت نواحيها ، وامتزجت بالعناصر الفارســية والرومية كل الامتزاج ، كما كان عند العباســيين ،على أن الأمويين كانت تشــغلهم أمر عظام هي بنـاء ملكهم وإطفـاء الفتن والثورات والتوســع في الفتوحـات ، فلم يكن لديهم من الهدوء والرخاء الاقتصادي بما يمكنهم من الإسراف في الغناء والتفتن فيه .

فلم يعرف عن " معاوية " ومن جاء بعده إلى " يزيد بن عبد الملك " مثلاً : من بالغ وأسرف في الشراب والغناء كغيره من العباسيين ، وعلى أيّ ؛ فالغناء في العصر الأموي كان عربياً بحتاً، فيه كثير من التحرز والعفة والتحديد بوجه عام .

أمـا الغناء في العصرــ العباسي نقيس ذلك ؛ حيث كان اللهو عامة محدوداً ، أو على الأصــح مكبوتاً في نفوس الناس ، في عهد " الســفاح والمنصــور " فإنهما كانا رجلي كســفاح وإدارة وعزم فوق ما عرف به من البخل والضّــن بأموال الدولة ، وما أن تولى الخليفة " المهدي " حتى انطلق في هذا الكبح فانتشرــ اللهو والغناء والشرــاب إلى حد الخلاعـة والمجاهرة بها ؛ ذلك لما صــارت إليه الدولة من الاســتقرار والأمن ، ولما كان يـدخـل في خزانتهـا من أموال بـاهظـة والتي كـانـت تجئ من الخراج ، ولقد ذكر " ابن خلدون " قائلاً : " إن دخل المملكة في عهد " الرشـيد " في كل سنة سبعة آلاف وخمسة عشرــ قنطـاراً من الـذهـب ، هـذا إلى كثرة الجواري من كـل نوع ، وإلى تلون الحيـاة الاجتماعية بألوان المدنية المشرــقة في جميع نواحيها ، تلك الحياة التي لم يألفها العرفي في صحراء المجدبة ، والتي بهرته وطارت بعقله ، وأذهبت لبه ، فلم يسعه إلا أن يغترف منها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

تمتع بها ما سـاعفتك حدودها .. فما كل حين وصـفوها لك شامل ، ومجالس الغناء عند العباسـيين خلفاء وأمراء وحكاماً ووجهاء وغيرهم تخص بها كتب الأغاني ، ونهاية الأدب وحيلـة الكميت ، والعقد الفريد ، وإن العقل ليذهل مما يرى فيها من إمعاق، وإغراق في اللـذائـذ ، وبمـا فيهـا من ترف يفوق الحـد ، وعطاء لا يدخل في حدود المعقول ، مما أدي بعد إلى تدهور الدولة رويداً رويداً ثم انحلالها بعد حين [١]

---

(١) ذاته .

سلامة الزرقاء

هي إحدى جواري " ابن رامين " وقد كان من أكبر تجار القيان في المدينة ، ومن أبرعهم تخريجاً وتثقيفاً لهن ، وكان منزله منتدى للأشراف ومحبي الغناء كما كان عشاً للمغرمين ببعض جواريه ، وقد عرفت واشتهرت منهن " سلامة الزرقاء " وربيحة وسعدة ، ولهن في كتاب الأدب أخبار مع العشاق والمعجبين ، وكان أشهرهن في ذلك " سلامة الزرقاء " .

قال بعض المدنيين : أتيت منزل " ابن رامين " فوجدت عنده جارية قد رفع ثديها قميصها ، لها شارب أخضر ممتد على شفتيها امتداد الطراز ! وكانما خطت طرتها وحاجياتها بقلم ، لا يلحقها فى ضرب من ضروب حسنها وصنف واصف ، فسألت عن اسمها فقيل هى " الزرقاء " .

وقد اشتهر بحب " الزرقاء " محمد بن الأشعث القرشي " وكان من فتيان أهل الكوفة وأدبائهم ، وظرفائهم ومن شعره :

أمسى لسلامة الزرقاء في كبدى   صدع مقيم طوال الدهر والأبد

لا تستطيع صناع القوم تشعبه   وكيف يشعب صدع الحب في الكبد

إلا بوصل التي من حبها انصدعت   تلك الصدوع من الأسقام والكمد

وكان " ابن الأشعث " كثير الاختلاء إلى دار " ابن رامين " كثير الاتصال بجواريه ، وكان " ابن رامين " معتزاً بهذه الزيارات؛ لأن له فيها مأرباً فى تجارته ورفعاً لسمعته ولقد دخل مره عنده فقابلته " الزرقاء " وبجانبها جارية لها فأعجبته فتبسم وقال

قل لأختي التى أحب رضاها   أنت لي فاعلميه ركن شديد

إن لي حاجة إليك فقولي   بين أذني وعاتقي ما نريد

فقطنت " الزرقاء " إلى قول " ابن الأشعث " فوهبت له الجارية فأخذها وخرج .

وكـامن من جواري " ابن رامين " غير " الزرقـاء " : "ربيحة وســـعدة " وفيهن يقول إسماعيل بن عمار :

هـل من شـــفـاء لقلـب لج محزون　　صبا وصب إلى ريم ابن رامين

إلى ربـيــحــة إن الله فضـــــلـهـا　　بـحســـنـهـا وســـماع ذي أفـانـين

أنــت الطبيـب لـداء قـد تلبس بي　　مـن الـجـوى فـانـفـثـي في وارقيني

ويقول لسعدة في هذه القصيدة ويصف مجلس شراب :

يا سعدة القينة الخضراء أنت لنا　　أنــس لأنــك في دار إبــن رامــين

إلى ربـيــحــة إن الله فضـــــلـهـا　　بـحســـنـهـا وســـماع ذي أفـانـين

أنت الطبيب لداء قد تلبس بي　　من الجوى فانفثي في فيّ وارقيني

لم أنس سعدة والزرقاء يومهما　　بـالـلـج شرقـيـة وفـوق الـدكـاكـين

إذا ذكرنـا صـــلاة بعـدمـا فرطـت　　قـمـنـا إلـيـهـا بـلا عـقـل ولا دين

نمشي إليها بطاءً لا حراك بنا　　كـأن أرجـلـنـا تـقـلـعـن مـن طـين

أو مشيـــ عميـان دير لا دليـل لهم　　ســـوى العصىّـــ إلى عيد الشـــعانين

وذات الخال

هي جارية فتنت " إبراهيم الموصلي " فغدا بها مجنوناً ، وكانت هذه الجارية لرجل يدعى " قرين " ويكنى " أبا الخطاب " وكان مولى للعباسة " بنت الخليفة المهدي عنى بها أبو الخطاب فثقفها ، وتلقت الغناء عن كبار المغنيين يوم ذاك ، وممن تلقت عنهم " إبراهيم الموصلي " فافتتن بها ، فحجبها سيدها عنه ؛ فلم يعيراها ، فقال فيها هذه الأبيات وهى :

ما بال شمس أبي الخطاب قد حجبت　　يا صاحبي لعل الساعة اقتربت

أولا فما بال ريح كنت آنسها　　عادت علي بصر بعدما جنبت

إليك أشكو أبا الخطاب جارية　　غريرة بفؤادي اليوم قد لعبت

وأنت قيمها فانظر لعاشقها　　يا ليتها قربت مني وما بعدت

وقد حظيت بالجمال والدلال ومواهب الإغراء ، وكان اسمها الحقيقي " خنث " أو " خسفان وإنما سميت " ذات الخال " لوجود خال على شفتها العليا زادها سحراً وفتنه فشهرها بشعره حتى تضايق مولاها فاستعدى عليه " الرشيد " على الرغم من انه رفع قدرها بشعره ، وأعلى مكانتها بألفاظه العذبة ، وكلماته الرائعة ، وكان يفرحون بمن يقول الشعر في مثل هذه الجارية ؛ حيث تكون موضع أحاديث القوم ، ووحياً لخيال الشعراء ، وفيضاً لألحان المغنين ، بل إن منهم من كان يسعى لنيل هذا الفخر ويصنع الشائعات ويذل ماء وجهه في تلمس زيارة شريف ، أو شاعر ، أو منن داره والحديث إلى جواريه ، فإذا كان من تجار " القيان " فقد كسب المال العظيم ، وإذا كان من عشاق حبازيهم فقد كسب الجاه والسمعة ، وإعجاب الناس ! ولا ريب في أن حال " أبي الخطاب " هذه مع " إبراهيم الموصلي " إلا أنه عاشق لجاريته، ومفتون بها

ويبدو أن حرمان " إبراهيم الموصلي " من ذات الخال في أبياته تلك :

أذات الخال أقصيت ... محباً بكم صبا

فلا أنسى حياتي ما ... عدت الدهر لي ربا

وقد قلت أنيليني ... فقالت أفرق الدنبا

ويتوجع " إبراهيم الموصلي " في هذه الأبيات ويتغني بها :

أذات الخال قد طالت ... بمن أسقمته الوجع

أما يمنعك الإسلام ... من قتلي ولا الورع ؟

وما ينفك لي فيك ... هوى تعتره خدع

وله أيضاً وقد برح به الشوق :

لذات الخال أرقني ... خيال بات يلثمني

بكى وجرى له دمع ... لما بالقلب من حزن

فلا أنساه أو أنسى ... إذا أدرجت في كفني

وقالوا كان " ابن زيدان " صاحب البرامكة في داره " إبراهيم الموصلي " يلاعبه " الشطرنج " إذ دخل عليهما إسحاق بن إبراهيم .

فقال أبوه : ما أفدت اليوم ؟

قال إسحاق : سألني رجل ما أفخم كلمة في الفم .

فقلت : لا إله إلا الله .

فقال له أبوه : أخطأت هلا .

قلت : دنيا ودنيا ، فأمسك " ابن زيدان " قطعة من الشطرنج وشج بها رأس " إبراهيم الموصلي "



وقـال : يـا زنـديق ، أتكفر ! بحضرـــتي؟ فنغاظ " إبراهيم الموصـــلي " وأمر غلمانه فضرـــبوه فـانصرـف " ابن زيـدان إلى "جعفر بن يحيى " فحـدثه الخبر وما علم " إبراهيم الموصـلي " حتى راح يسـتعطف " الفضل بن يحيى " فشفع له لدى أخيه ، فانصرف وهو يقول :

إن لم يكن حـب ذات الخـال عنـاني إذا فـحـولـت عـن دار ابن زيـدان

فإن هذي يمين ما حلفت بها إلا على الصدق في سري وإعلاني

من هنا اشــتهرت " ذات الخال " وذاع صــيتها ، وتحدث عنها الأشراف ، والمغنون ، وأهل العراق ؛ وذلك بسـبب ما أنشـده "الموصلي " من شعر فبلغ خبرها " الرشيد " فاشـتراها بسـبعين ألف درهم ، وكانت إحدى جواريه الثلاث اللواتي فتن بهن وعرف بحبهن وحســنهن " ســحر " و " ضــياء " و " ذات الخال " أو خنث وفيهن يقول الرشيد :

إن ســـحـراً وضــيـاء وخـنـث هـنّ ســحـر وضــيـاء وخـنـث

أخـذت ســحُـر ولا ذنـب لـهـا ثـلـثـي قـلـبـي وتـربـاهـا الـثـلـث

إذن " فســحر " كانت أحبهم لدى " الرشــيد " وأكرمهم منزلة ، ويبدوا أنه ما كان يعرضها للغناء في مجالسه العامة بل كانت لنفسه خاصةً ؛ فلم يشتهر أمرها شهرة " ذات الخال " يتهافت عليها الشعراء والمغنون مثل " عباس بن الأحنف " و " إبراهيم الموصــلي " واشــترى الرشـيد " ذات الخال " فنعم بها وتمتع بغناها ، بيد أن غيره " الرشـيد عليها كانت سـبباً في كثرة كديرة قفيرته نفضـت عليه سـعادته بمعشـوقته " ذات الخال " وجعلته يعيش دوماً في قلق واضــطراب ، ويســألها يوماً وكانا معاً في مجلس شراب وشدّد عليها أن تصدقه الحديث ، فقال لها : أكان بينك وبين " إبراهيم الموصـــلي " شيء ؟ فـأطرقـت " ذات الخـال " وتلكأت في خوف وفزع : أجل ! مرة واحدة ، فأقصـاها عنه ، وتقصى قدرها عنده وقالوا إنه قال يوماً لجلسائه : أيكم لا يبالى أن يكون " كشاخناً" أي عديم الغيرة حتى أهب له " ذات الخال " ؟

فصمت القوم ! وصيفه " حمويه " قال : أنا ، فوهبها له ، فاغنم " إبراهيم " وتأذى وقال فيها وغني :

أتهب ذات الخال راجية ريا — وقد سلبت قلباً يهيم بها حباً

ويا عذرها ؟ لنفس فداها ولم تدع — على أعظمي لحماً ولم تبق لي لبّا

فاز " حمويه " الوصيف " بذات الخال " ولكن الرشيد لم يطق بعدها عنه ، فشتاقها يوماً ، فقال له : ويلك يا " حمويه " ! وهبناك الجارية على أن تسمع غناءها وحدك.

قال حمويه " : وما تأمر يا أمير المؤمنين ؟

قال الرشيد : نحن عنك غداً ، فمضى " حمويه " وزين الجارية بجواهر كانت قيمتها اثنا عشر ألف دينار استأجرها من بعض الجوهريين ثم أخرجها إليه وقد لعب الشراب برأسه ، فلما أبصرها " الرشيد "

قال : ويلك يا حمويه ! من أين لك هذا ؛ وما وليتك عملاً تكسب منه مثل هذا ؟ ولا وصل إليك منى مثل هذا القدر ؟ فصدقه الخبر ، فبعث " الرشيد " في إحضار أصحاب الجواهر فاشتراها منهم ووهبها لذات الخال ، ثم حلف ألا لسأله في يومه هذا أمراً إلا قضاه ، فسأله أن يولى " حمويه " الحرب والخراج " بفارس " سبع سنين ففعل الخليفة واستجاب لطلبهما ، وحقق فوراً رغبتهما .

ومن شعر " العباس بن الأحنف " في " ذات الخال " :

ألا ليت ذات الخال تلقى من الهوى — تطير الذي ألقى فيلتئم الشعب

وما لكم صرم وحبكم قلى — وعطفكم صد وسلكم حرب

تلك " ذات الخال " بين الرشيد والموصلي ، والعباس بن الأحنف ، وتلك وجيعة كل منهم ، ولعلها كانت أبرع جواري " الرشيد " وليس في الغناء ، ولكن في كل شيء امرأة ... !

بَصْبَص

جارية من جواري المدينة ، وكانت لرجل يرعى " يحي بن نفيس " ؛ وقد كان صاحب جوار كثيرات يعلمهن ، ويعرضهن للغناء والتجارة ، وقد أخذت الغناء عن ابن سريج ومعبد وأمثالهم من الطبقة الأولى للمغنين .

وكان " لأبن النفيس " قصر عجيب يجتمع فيه أشراف المدينة لسماع الغناء من " بصبص " وممن كان يغشى هذا القصر " محمد بن يحي " وعبد الله بن يحي " وعبد الله مصعب بن الزبير " وغيرهم ، وقد وصف أحد الشعراء قصر " ابن نفيس " بقصيدة جاء فيها :

شاقني الزرائرات قصر نفيس   مثقلات الأعجاز قب البطون

وقد أعجب فتيان قريش بالجارية المغنية " بصبص " وافتتنوا بها حتى إن منهم من اشتهر بحبها وعشقها ، والهيام بها وقد مر " أبو جعفر المنصور " بالمدينة عائداً من الحج فأقام بها أياماً ، ثم غادرها دون أن تتوق نفسه لسماع المغنين والمغنيات بها ، فقال " عبد الله بن مصعب :

أراحل أنت يا جعفر   من قبل أن تسمع من بصبصا

هيهات أن تسمع منها إذاً   جاوزت العيس بك الأعوصا [1]

لو أنها تدعو إلى بيعة   بايعتها ثم شققت العصا

فلما بلغت الأبيات " المنصور " غضب ودعا بعبد الله ابن مصعب بن الزبير وقال : ما إنكم " يا آل الزبير " قديماً ما قادتكم النساء ، وشققتم معهم العصا ، حتى صرت أن أخر الحمقى تبايع المغنيات فدونكم " يا آل الزبير ، وهذا المرتع الوخيم بيد أن " ابن الزبير " لم تدع بكلام المنصور فشق العصا فعلاً ، وغدا مصطبحاً[2] مع بصبص ، وهى تغني شعراً له :

---

(١) الأعوصا : اسم مكان .
(٢) الجوار المغنيات : لفايد العمروس : ط دار المعارف ط الثالثة ١٩٦١م ص١١٨ ، وما بعدها .
* مصطبحاً : يشرب الخمر فى الصباح .

إذا تمددت صراحبة | كمثل ريح المسك أو الطيب
ثم تغنى لي يأهزاجه | زيد أخو الأنصار أو أشعب
حسبت أني مالك جالس | خفت به الأملاك والموكب
فلا أبالى وإله الورى | أشرق العالم أم غربوا ؟

وبلغ هذا الغناء " المنصور " فقال العالم لا يبالون كيف أصبحت ولا كيف أمسيت !

وقد كان " المنصور " يكره الغناء أشد الكراهة ، ويحب " الحداء " وهو غناء يردده حادي الإبل " في الأسفار ، وقد أثر عنه أنه قال : وقد عزم على السفر : يعجبني أن يحدو بي الحادي الليلة بشعر " طريق العنبري " فهو آلف في سمعي من غناء " بصبص فأحضر له حادٍ معروف فسأله " المنصور " : ما بلغ من حسن حدائك ؟

فقال الحادي : إذا حدوت وضعت الإبل رعوسها من حسن صوتي ، ولقد تعطش ثلاثة أيام إلى خمسة وتمر بالماء فلا تقربه وصار " المنصور " براحلته ليلً فحدا به وتغنى بهذه الأبيات :

إني وإن كان ابن عمي كاشحاً | لمُزاحمٌ من دونه وورائه
وأمدة نصري وإن كان أمرأً | متزحزحاً في أرضه وسمائه
وأكون مأوى سره وأصونه | حتى يحق علي يوم أدائه
وإذا أتى من غيبه بطريفة | لم أطلع ماذا وراء خبائه
وإذا تحيفت الحوادث ماله | قرت صحيحتنا إلى جربائه
وإذا غدا يوماً ليركب مركباً | صعباً قعدت له على سيسائه

فأعجب المنصـــور وطرب بهذه الحداء ، وقال : هذا شـــعر والله لأحث على المروءة وأشبه بأهل الأدب من غناء بصبص .

فلما أصـــبح قـال : يـا ربيع أعط الحـادي درهماً قال الحادي، وقد صـــعق : يا أمير المؤمنين حدوت بهائم " بن عبد الملك" فأمر لي بعشر ـين ألف درهم ، وتأمر لي أنت بدرهم ؟!!!

قال المنصور : إنا لله ! ذكرت ما لم نحب أن تذكره ، ووصفت رجلاً ظالماً أخذ مال الله من غير حلـه وأنفقـه في غير حقـه... ! يا ربيع اشـــدد يدك به حتى يرد المال ! فبكى الحادي ، وقال: يا أمير المؤمنين ، قد وضـــعت هذه الســـنون وقضـــيت به الديون وتمزقتـه النفقـات ! ولا والـذي ألرمـك بـالخلافـة مـا بقى عنـدي منـه شيء فلم تزل الشـــفاعات تأتي إلى المنصـــور في الرجل حتى عفا عنه وشرط عليه أن يحدو به ذهاباً وراجعاً ولا يأخذ منه شيئاً. ففعل الحادي وأمره إلى الله ... !

هذا هو شـعور " المنصـور " نحو الغناء عامةً ، وغناء "بصـبص " خاصـةً ، وهذا هو نجله بل حرصـه في العطاء ، ولا عجب فهو الرجل الذي أسـس ملك العباسيين الذين أتوا بعده فبعثوا باليمين وبالشمال ، وبدون مقدار أو حساب .

وقـالوا عن " بصـــبص " : إن " المهـدي قد أعجب بها فاشـــتراها سراً في خلافة أبيه وحجبها عنه ، فولدت له " عبلة بنت المهدي " المغنية الشاعرة المعروفة .

وقـالوا : إن " أم عبلـة " هي " مكنونـة " جـاريـة المردانية ، وكانت أحســـن جارية بالمدينة ، وقد اشـتهرت بجمال الصـدر والبطن فاشتريت للمهدي في خلافة أبية بمائة ألف درهم .

وقـد قالت عنها " الخيزران " إن المهدي ما ملك جارية أغلظ عليّ منها ، ونحن نميل إلى أن " بصبص " هي أم عبلة بنت " المهدي " ؛ لجملة اعتبارات منها أن " المهدي " قد اشتراها قطعاً وان " عبلة " كانت مغنية حاذقة انهي تشترك وبصبص في هذا الفن ولم يعرف " لمكنونة " غناء على أن هذه رواية " ابن خرداذبة " وهو معروف بالدقة والتمحيص [1] .

([1]) ذاته : ص١٢٦ .

فريدة

وكـانـت جـاريـة من جواري " عمرو بن يـافة " وهو مغن معروف ونديم من ندماء الخلفـاء ، وكـان مغرمـاً بـاقتنـاء الجواري ، ورعـايتهن وتعليمهن ، وكن يتخرجن ويتتلمـذن في الغنـاء عليه ، وكانت الجارية " فريدة لديه أعز جواريه ، وأقربهن إلى قلبه ، وعلى ما عرف عنه من البخل الشـــديد فإنه كان يخصــها بكثير من الإنفاق ، ووجد فيها استعداداً فنياً رائعاً فهي فاتنة الجمال ، عذبة الحديث ، خفيفة الخاطر ، كما أنهـا كانت حادة الذكاء ، سريعة الخاطر فراح ينمي فيها هذه المواهب ويعلمها العزف على العود وكـان مما ســاعده على تعليم جوراية " فريدة عبيدة الطنبورية فبعـد تعليمهـا كـانـت " فريدة " فتنة له ولمن رآها أو ســمعها ، ومن أغانيها التي حذقتها وأحادته عنده ما غنته من شعر الشاعر " الأحوص بن محمد الأنصاري " :

مـن عـاشـــقـين تـزايـلا وتـواعـدا   يـلُـقّـى إذا نـم الـثريـا حـلـقـا ؟

بـاتـا بـأنـعـم لـيـلـة وألـذهـا   حـتـى إذا بـرق الصــبـاح تـفـرقـا

ومن غنائها في شهر " نصيب " :

إلا أن لـيلى العـامريـة أصـبحـت   عـلى الـغـأي مـنـى غير ذنبي تنعم

وما زلت أســتصــفي لك الود أتبغي   مـحـاســـنـه حـتـى كـأني مـجـرم

فـلا تصرـــمـنـي حـين لي مـرجـع   ورائي ولالي عــنــكـم مــتــقــدم

ومع هذا التحرز فقد أعجب الناس بغناء " فريدة " وأشـاعوا ذلك في كل مكان فداخل عمراً " زهو وتيـه، وزادت في نفســه تقـديراً وإعزازاً ! وكـان مولاهـا من نـدماء الواثق وجلســائـه ، ولكنـه لم يعلمـه بأمر " فريدة " ، وإن كان قد علمه بكل جواريه وبلغ " الواثق " أمرهـا فعتـب عليـه وزاد في عتبه وأيقن مولاها أن " فريدة " طارت منه ! ولا مفر من التسـليم ! فقال : يا أمير المؤمنين أغنيك من غنائها ، فإن أعجبتك حملتها إليك قال هات ، فاندفع يغني لها :

هل قلبك اليوم عن شقياء منصرف وأنت ما عشت مجنون بها كلف

ما تذكر الدهر إلا صدّعت كبداً حرىً عليك وأجرت رفعة تكف

فينصرــف " عمرو " فيحضرــها إلى " الواثق " فما تقع عليها عيناه حتى يهتز فيهتز معه سريره ، وتجلس " فريدة " وتلاعب وتغنى بشعر " لأبي العتاهية " :

بليت وكان المزح بدء بليت فـأحـببـت جهلاً والبلايـا لهـا بـدو

وعلقـــت من يزهو عليَ تجـــبـــراً وإني في كـل الـخصـــال لـه كـفـو

فطرب " الواثق " وصـــاح : أعيـدي ! أعيـدي قـد والله إنـك لـه لكفء وأحس مولاهـا بإعجاب الخليفة بها وتهالكه عليها فوهبها إياه وانصرف .

أصبحت " فريدة " من جواري " الواثق " وما لبث حتى أضحت أعز جواريه ، وأكرمهم عنـده ، لقد افتتن بها وهام في حبها وعرف ذلك عنه ، كما عرف " يزيد بن عبد الملك " بحباته " وكان شديد الغيرة عليها ، كثير الهواجس نحوها وحتى إن غيرته لتشمل حياته وحماته ! وكأنه يحس إحسان " نُصيب

وكـان " لفريـدة " وهى عنـد مولاهـا جارية تربت معها تدعى " خلّ " فكان يعـاودهـا الحنين إليهـا وتود لو تراها ؛ ولكن ذلك بعيد، فما كان " الواثق " ليطمئن إلى أن يراها أحد حتى مولاها الذي وهبه إياها .

حدث " عمرو " أنه دخل يوماً على " الواثق " فغني :

قـلـت خـلى فـاقـبـلي مـعـذرتي مـا كـذا يـجـزى مـحبـاً من أحـب

فقال له : تقدم إلى الستارة فألقه على " فريدة " فألقيته .

قالت هو خلى أو خل ؟ فعلمت أنها سألتني عن صاحبتها في خفاء من " الواثق " .

وكـان " للواثق " مع " فريدة " مجالس غرامية أكثر منها غنائية ، وزمنها ما حدثنا عنها "محمـد بن الحـارث " قـال : كـانـت نوبتي في خـدمـة " الواثق " يوم الجمعـة من كل أســبوع، وكـذلـك كان لكل من ندمائه يوم لا يتعداه ولا يجرؤ واحد منا على الدخول عنـده في غير يومه ، وبينما أنا في منزلي يوم الأربعاء إذ رســل الخليفة قد هجموا عليّ وقالوا : أسرع إلى الخليفة ، فداخلني خوف .

وقلت : ليس هذا يومي ، ولعلكم أخطأتم

وقلت في نفسي : هذا أخر أيامي ، وركبت حتى وصـلت قصره ، فأدخلت من باب غير ما عهدته ، ولم أكن رأيته قط ، وسـلّمت إلى خدم لم تراهم عيناي ، وهؤلاء يسـلمونني إلى آخرين حتى انتهيت إلى صـحن كبير مفروش ، وقد غطيت حطانه بالوشي المنسـوج بالذهب ، ثم وصـلت رواق أرضـه وحوائطه ملؤه بمثال ذلك ، وإذا " الواثق في صـدره على سرير مرصـع بالجواهر وعليه ثياب موشـاة بالذهب ، وبجانبه " فريدة عليها مثل ثيابه ، وفى حجرها عود ، فلما رآني قال أحسنت والله يا " محمد " فقبلت الأرض وقلت خيراً يا أمير المؤمنين

قال : طلبت والله ثالثاً يؤنسنا فلم أر أحق بذلك منك ، فبحياتي يا در فكل شيئاً ....

فقلت : قد والله يا سيدي أكلت وشربت : قال : فأجلس ، فجلست .

قال : هاتوا " لمحمد " رطلاً في قدح ، فشربت واندفعت

" فريدة تغني :

أهـابـك إجـلالا ومـا بـك قـدرة	علـيّ ولـكـن مِـلء عـين حـبـيـبـهـا
وما هجرتك النفس يا ليل أنها	قلتـك ولا أن قـل منـك نصــيبهـا

فجاءت والله بالســحر الحلال ، وراح " الواثق " يداعبها ويلاطفها أثناء الغناء قـال : " محمد " وبينما نحن في نشـــوة وطرب ، وإذا " بالواثق " قد رفع رجله وضرب بهـا " فريـدة " في صـــدرهـا ضربـة تدحرجت منها من أعلى السرـــير فتفتت عودها ، انتهضت وهي تجرى صارخة واختفت عنا ، وما رأيت هكذا فقدت وعيي

وكـادت روحي تزهق وظننت أنه رآني وأنا أخالها وتخالني النظرات ففعل بها ما فعل ، وســـيفعـل بي مـا يريد ، ونظرت إيه فإذا هو مطرق إلى الأرض وذقنه في يده فأطرقت وقد توقعت ضرب عنقي ، وظللت على ذلك سـاعة من الإطراق والصـمت حتى فقدت رشــدي ثم رفع نظره إلى وقال : يا " محمد " قلت لبيك ونهضــت واقفاً ، قال : أرأيت أغرب مما صـنعت ؟ قلت : يا سيدي قد أصابتنا عين ، فلعنة الله على صاحبها ، قال : لا ولكني تخيلت أنني سـأموت ، وأن " المتوكل " سـيقعد فوق هذا السرير وتقعد فريدة بجانبه وتغنيه هذا الصوت ، فسرى عني ،

وقلت : يا سيدي بل يقتل " المتوكل "ويحيا أمير المؤمنين .

قال محمد : وانفرجت أسارير " الواثق " وأرسل الخدم في طلب " فريدة " فحضرت وبيـدهـا عود جـديـد ، وثياب طلية ... فما رآها حتى جذبها إليه وعانقها وراح يبكي كالطفل ، وأنا أبكي لبكائه ، " وفريدة " تنتحب وتشـهق من حرارة البكاء ، قم قالت له "فريدة " يا ســيدي ومولاي بأي شيء اســتوجبت هذا ؟ فحكي لها فزاد بكاؤها وبكاءه ، ثم قالت : سـألتك بالله يا أمير المؤمنين إلا ضربت عنقي السـاعة وأرحتني من الفكر ، وأرحـت نفســك من الهم بي ، فعانقها " الواثق " مرة أخرى ورفعها إلى جانبه كما كانت ، ثم أمر فأحضرت أكياس الذهب والفضـة فنثرها بين يديها وأخرج من درج بجانبه عقداً ما رأيت أنفس منه في حياتي فوضــعه في عنقها ، ومنحني من العطايا ما لا يقدر فعاد مجلسنا كما لكان يشع فيه البشر والهناءة .

قال محمد : وعشـــت حتى مات " الواثق " وولي المتوكل الخلافة فو الله لقد دخلت عليه في نفس المكان وهو على نفس السرير " وفريدة " بجانبه والعود بيدها .

قلم الصالحية

وهى جارية للخليفة " الواثق "ولم تكن حياة " قلم " كلها " للواثق " ، فإنها نشأت أول ما نشـأت بالعراق في " بغداد " فتلقت الغناء على مشـايخه أمثال " إبراهيم الموصلي " وإســحاق ابنه ، " ويحي المكي " ، وقد عرفت بالجمال والعذوبة وصــفرة اللون ، كما عرفت لها ألحان كثيرة أخذها عنها المغنون ومنهم المغني " زرزور الكبير.

وكانت " قلم " في أول أمرها جارية لصــالح " عبد الوهاب أخي أحمد بن عبد الوهاب كاتب " صالح بن الرشيد " وكان " صالح " معتزاً بها مهتماً بأمرها ، فوقف على تقيضها وتهذيبها وتخريجها في الغناء على أساتذته في ذلك الحين .

ومن غنـائهـا وهى عنـد مولاها شـــعر " لعلى بن الجهم " يهنئ به " الواثق " حين ولي الخلافة :

قَـد فـازَ ذو الـدُنـيـا وَذو الـديـنِ بِـــدَولَـــةِ الـــواثِـــقِ هـــارونِ

وَعَـمَّ بِـالإِحســـانِ مِـن فِـعـلِـهِ فَـالـنـاسُ في خَـفـضٍ وَفي لـينِ

ولســت أدرى ما أعجب " قلم "من هذا الشـعر حتى تغنيه ؟ وإن فيه من الفتور والروح الفقيهة ما ينبو به عن الذوق السـليم ، ولكنه شـعر للخليفة ، وكل بالخلفاء فهو عظيم .

وما غنت من شعر " على بن الجهم " في الواثق :

وثـــقـــت بـــالمـــلـــك الـــوا ثـــق بـــالله الـــنـــفـــوس

مـــلـــك يشـــقـــى بـــه المـــا ل ولا يشـــقـــى الـجـلـيـس

يـا بـنـى الـعـبـاس يـأبي الـل ـه إلا أن تـــوســــوا

واشتهرت " قلم " بهذا الغناء في " الواثق " فأخذه عنها كثير من المغنين وتغنوا به في مجالسه .

أعجب " الواثق " بهذا الغناء فسأل عن صاحبه فقيل له : " قلم الصالحية " والغريب أن الخليفة لم يكن يعرف شيئاً عن مولاها، كما يفهم من رواية الأغاني ، وقد ظل مشغوفاً بهذا الغناء تواقاً إلى رؤية صاحبه ، حتى دخل عليه يوماً بعض ندمائه وفيهم المغنون وقد اندفع واحد منهم يغني من شعر " محمد بن كنانة " مولي دنانير :

فى انقباض وحشمة فإذا	صادفت أهل الغناء والكرم
أرسلت نفسي على سجيها	وقلت ما قلت غير محتشم

فطرب " الواثق " وسأل عن الغناء ؟ قالوا : " لقلم الصالحية " جارية " صالح بن عبد الوهاب " .

فبعث إلى " ابن الزيات " وزيره وكاتبه فقال له : ويلك من صالح بن عبد الوهاب ؟ فأخبره به ، قال " الواثق " : فأين هو؟ قال : فى بغداد ، قال " الواثق " : ابعث في إحضاره ومعه جاريته، فقدما على " الواثق " ، فأمر بالجلوس والغناء فغنت لبعض الشعراء :

أيها العاذلان لا تعذلاني	ودعاني من الملام دعاني
وابكيا لي فإنني مستحق	منكما البكاء أن تسعداني
إنني منكما بذلك أولى	من مطيع نجلتي حلوان
فهما يجهلان ما كان يشكو	من هواه وأنتما تعلمان ؟

فما سمع هذا الغناء حتى طرب وشرب ثم قال : يا صالح بكم تبيعني هذه الجارية قال : أبيعها بمائة ألف دينار وولاية مصر .

فغضب " الواثق " وتأذى وأذن لهما بالخروج فانصرفا إلى بغداد ، خرجت " قلم " ورحلت ، ولكن لم يرحل عن " الواثق " إعجابه بها ، وكلما حدثته نفسه بها تذك جرأة مولاها في طلبه ثم طمعه في ولاية مصر ، فينصرف عنها وعن تذكرها .

وتشاء الأقدار إن أن يلاحق " الواثق " ذكرها ، وأن تنكشف أمامه دائماً محاسنها ، فما هو إلا مجلس من مجالسه الغنائية حتى اندفع " زرزور " الكبير فغني من شعر أحمد بن عبد الوهاب أخي صالح مولاها :

أبت دار الأحبة أن تبينا أجدك ما رأيت لها معينا

تقطع حسرة من حب ليلى نفوس ما أثبن ولا جزينا

قال : يا سبحان الله ! عليّ بابن الزيات .

فحضر " ابن الزيات " فأمره بإحضارها هي ومولاها فأحضرا قال " الواثق " : غني يا قلم : أبت دار الأحبة إلخ

فغنت ثم التفت إلى صالح وقال : أما زلت تطلب ولاية مصر ؟ فأحس مولاها رغبة الخليفة فيها ، كما أحس فظاعة المطلب والجرأة التي يفصح عنها ، فقال أما وقد وقعت الرغبة فيها منك يا أمير المؤمنين فما يجوز أن أملك شيئاً لك فيه رغبة ، وقد أهديتها إليك مبارك الله فيها ، فما سمع " الواثق " هذا الكلام حتى ابتهج وقال قد وليت إذا أمر " ابن الزيات " أن يدفع لمولاها خمسة ألاف دينار ؛ ولكن " ابن الزيات " عرف القصة فلم يعط مولاها شيئاً ، وكظم الرجل غيظه ولم يجد له حيله لقبض الدنانير ؛ إلا أن يرسل إلى " قلم " من يخبرها بذلك ، قد فرح ونعم " الواثق بقلم " وشقي مولاها بالحرمان دون أن يجرؤ على مطالبة " ابن الزيات " بشيء؛ وكيف يطلب " وابن الزيات " مدبر الأمور ومصرف شئون الدولة إذا ذاك ؛ فهو يعطى ويمنع ، وهو يسعد ويشقى ، ولم يعلم " الواثق " بهذه المماطلة إلى أن اصطبح يوماً مع " قلم " فغنت له من شعر " أبي الأسود الدؤلي "

وغناء " إبراهيم الموصلي " :

بليت بصاحب إن أدن شبرا ... يزدني في تباعده ذراعا

وان امدد له في الوصل ذرعي ... يزدني من جفاء البعد باعا

أبت نفسي له إلّا إتباعا ... وتأبى نفسه إلّا امتناعا

كلانا جاهد أدنو وينأى ... فذلك ما استطعت وما استطاعا

فطرب الواثق " وقال : بارك الله فيك وفيمن رباك ، فتضايقت الجارية وصاحت : يا أمير المؤمنين ؛ وما نفع من رباني فيّ إلا التعب والغرم عليّ والخروج مني صفراً ؟ قال الواثق وقد تعجب : أولم آمر له بخمسة آلاف دينار ؟ قالت: بلى ؛ ولكن " ابن الزيات لم يدفع له شيئاً ، فدعا بخادم من خواص خدمه وكتب إلى " ابن الزيات " بدفع خمسة آلاف دينار " إلى مولاها وبخمسة أخرى مثلها.

وكنت أعلم أن ابن الزيات " يتردد على منزل من منازل أحد أصدقائي للعبث والمجون وكان يتستر في ذلك خوفاً من الواثق ، فجعلت هذه الناحية فيه هي المصيدة التي أصيده بها ؛ والتي أقبض منها حقي .

وبينما هو عند صديقي ليلة ، وقد مرت موائد الشراب وحولها الولدان والجواري ، إذ طرقت باب صديقي ففتح لي فدخلت ولكني تسترت عنه ، وعلم " ابن الزيات " بوجودي فأسقط في يده ، وفطن إلى حرج موقفه وأن الخليفة لابد عالم به إن لم يدفع وفى الصباح كنت قد قبضت الخمسة آلاف فاشتريت بها ضيعة وجعلتها معاشي واستغنيت بها عن عمل السلطان .

وبعد فهذه قصة " قلم " ، وقصة بيعها للخليفة ، ومماطلة " ابن الزيات " في دفع ثمنها هذا ولم يكن للجارية في نفس " الواثق " ما كان " لفريدة " في نفسه ؛ فالأولى كان مفتوناً بفنها وغنائها ، والثانية كانت له " حبيبه " ، وكان بها مدلهاً وما أشبة " قلم وفريدة " عند " الواثق " بسلامه وجباته " عند " يزيد بن عبد الملك " ، وقد ذكرنا ذلك في موضعه ، وكان " لقلم " كثير من المعجبين بغنائها ، والذين يغنون ألحانها وينسبون إليها ، فهي صاحبة فن غنائي معترف به ، وصاحبة مذهب فيه أحب الناس .

هذا وليس في أخبارها ، وهى قليلة جداً [1] ما ينبئنا بنهاية حياتها ، فهل عاشـت بعد الواثق " ؟ أو ماتت قبله ؟

والظن أنها عاشــت بعده ، ولكنها عيشــة خاملة رغب عنها الرواة ، فلم ينقلوا إلينا منها شيئاً .

خليدة المكية

هذه الجارية المغنية " خليدة المكية " ؛ وهى إحدى جواري ثلاث كان نصـــيبهن من الأخبار قليلاً وهن " خليدة المكية " ودُقاق " وتياجن" هذا ولم يكن لإحداهن عيشة في قصور الخلفاء مثل بقية الجواري المغنيات ، فهن في ذلك يشبهن في حياتهن عامة مع " عبيدة الطنبورية " مع الفارق في أسـاليب الحياة ، ولم يعتر لإحداهن على غناء منصـــوص عـاليـه عـدا " خليدة المكية " ؛ حيث لها لحناً معروفاً غنته في مجالس " جميلة " وقد ذكر في موضعه .

لذا حياتهن متشابهة ، وأقدارهن متقاربة وكان أيضاً نصيبهن من الأخبار قليلاً جداً .

أما هذه المغنية " خليدة المكية " فهي جارية ســوداء ، لها صــفة معروفة في الغناء اسـتحسـنتها " جميلة " بيد أن صـاحب " الأغاني " لم يفتن بها ، كما يفتن بغيرها من الجواري المغنيـات ، ولعل صـــاحب " الأغاني " لم يقف على أخبار عنها موثوق بها ؛ فلـذلـك أهملهـا ، أو لعله وجد ما روى عنها قليلاً لا ينال الذكر أو التدوين ؛ ولذلك نراه اكتفى بكلمـة موجزة عنها ، وجاءت تحت عنوان " ذكر خبر من لم يمعن له خبر ولا يأتي " [2] .

أمـا صـــاحـب " نهـاية الأدب " فقد أفرد لها كلاماً لا يخرج في مجموعة عما ورد في الأغاني [3] ، وليس في هذا ، ولا ذاك ما يعطينا صـورة تشـفي العلة أو تبل الأوام ، أو تروى الظمأ

---

(١) ذاته : ص٢٤٢ ، وما بعدها .
(٢) الأغاني : ص١٥ ، ص١٠ .
(٣) الأغاني : ص٥ .

ومن بين هذه الأخبار ما يلي :

كانت " خليدة المكية " جارية " لأبن شمس " وكان " ابن شمس " من تجار القيان " وكان له غيرها من الجواري المغنيات مثل " عقيلة " وربيحة " اسمين من السماسيات وهو في هذا شبيه " بابن رامين " الذي عرف بجواريه " الزرقاء " وسعدة " وربيحة وخليدة المكية " جارية نشـأت في المدينة ، وتلقت الغناء عن " جميلة " وابن سريج ومالك ، ومعبد ، فهي بهذا مغنية قديمة، تلقت الغناء عن أسـاتذته وشـيوخه الذين ظلوا حتى نهاية الدولة العباســية أصــلاً لكل غناء ، ومرجعاً لكل مغن أو مغنية ، وكـانـت تختلي إلى دار " جميلة " وتنخرط في جواريها ، وتقوم بخدمتها وتحيي معها أيامها الغنائية ، كما رحلت معها إلى " مكة " في مواكب حجها ، ولها غناء بمجالســها في يومها الثالث وهو:

ألا يـا مـن يـلـوم عـلى الـتصـــابي	أفـق شــيـئـا لـتســمع من جوابي
بكرت تلومني في الحب جهلا	ومـا في حـب مـثـلي مـن مـعـاب
كــريــم نــال ودا في عــفــاف	وســـتر مـن مـنـعـمـة كـعـاب

وكانت " خليدة المكية " سوداء اللون بيدْ أن سوادها لم يحل بينها وبين الإعجاب بها فمن أخبارها الصـغيرة ، عرفنا أن لها حياة غرامية لم تسـعدنا الأخبار بتفصـيلها بعد أنهم قالوا : " إن أكثر من أحد من أهل المدينة افتتن بها

ومنهم من يومئ إليه الشاعر بقوله :

فـتـنـت كـاتـب الأمـير ربـاح	يـا لـقـومـي خـلـيـدة المـكـيـة

والأمير هو " رباح بن عثمان " وكان ولياً على المدينة ، أما كاتب الأمير فاسمه مجهول ، وكان " لرباح بن عثمان " مع " ابن مبادة " الشاعر حديث [1] .

فقد روى " إسحاق الموصلي " أن " الفضل بن الربيع " قال : ما رأيت " ابن جامع " وابن جامع " هذا من كبار المغنين ، يطرب للغناء كما كان يطرب لغناء " خليدة المكية وذات مرة نراها تغني أمام " هشام بن عروة " فأعجبه غناؤها ، فقال لها : " اكتبي في صدرك " قل هو الله أحد " وبين كتفيك " المعوذتين " لتصيبك العين ويبدو أن " خليدة المكية " أعتقها سيدة، وعاشت في دار خاصة بها ، وكانت على جانب كبير من الجمال يجذب الأنظار ، ويأخذ الألباب ، ويستولى على المشاعر ؛ وإلا فما بال " محمد بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان بن عفان " ليبعث من يتقدم إليها ليخطبها له ؟ ويروى أن الشريف أرسل " أبا عون " مولاه إلى " خليدة " ليخطبها له فذهب إليها " أبا عون " فاستأذن فأذنت له ، وعليها ثياب رقيقة فرئبت مرناعة وصاحت قائلة " إنما ظننتك بعض سفهائنا ! ؛ ولكني ألبس لك لباس مثلك ، ففعلت قال لها " أبو عون " أرسلني إليك مولاي ؛ وهو من تعلمين من رسول الله " ﷺ " ومن " عثمان بن عفان ومن على بن أبي طالب " وهو ابن عمر أمير المؤمنين ، أقول أرسلني إليك يخطبك .

فقالت : " خليدة " موضحة نسبها " إن أبي على غير عقد الإسلام ، ولا عهده فما سيد عبداً ، ومات في رجله قيد ، وفى عنقه بليه على الإباق والسرقة ، وولدتني أمي على غير رشده ، وماتت وهى آبعة ، فأنا من تعلم ، ثم أردفت قائلة " قل لصاحبك إن أردت نطاحاً ، أو زنا صراحاً فهلم إلينا فنحن له. ! ، فقال لها " أبو عون " هو لا يدخل في الحرام ، قالت : " خليدة " ولا ينبغي أن يستحي من الحلال ! ، فأما نكاح السر فلا ، فلا والله لا فعلته ، ولا كنت عاراً على القيان ، قال " أبو عون " فرجعت إلى " ابن عثمان فأخبرته ، فقال : ويحك ! أتزوجها مغنية ؛ وعندي بنت " طلحة بن عبيد الله " يسعني عائشة بن طلحة .. لا .

ولكن ارجع إليها وقل لها : تختلن إلى أردّد بصري فيها ليلى أسلو ، قال " أبو عون " فرجعت إليها فأبلغتها الرسالة فضحكت وقالت : أما هذا فنعم ، لسنا نمنعه .

---

(1) الأغاني : ص٢ ، ص١٨ .

من هذه القصة نستطيع القول : بأن " ابن عثمان " لان بها مهيماً ليس إلا ؛ وإلا فنسبه وتاريخه لا بعيد ، وهذا الإعجاب ولا يتخطاه ، فنســتطيع أن نســميه إعجاباً شــديداً ، وميلاً عنيفاً ، وإلا فما معني أن تتردّ عليه لينظرها ليله يســلو ؟ وفعله أيضــاً أن روح الإباحية لدى " خليدة " أصـيلي ؛ حيث أنها لا تآلف من الزنا الصراح ، وتآلف من نكاح السر ، وهى تسـتقبل في بيتها السـفهاء ، فلا مانع لديها أن تكون شـبه عارية إذا طرق بـابها أحدهم " فخليدة " جارية مغنية تحترف الغناء ، وتتكســب منه في حياة طليقة حرة يكتنفهـا مـال يكتنف حياة الجواري ، وقتئذ من العبث والإباحية والمجون ؛ ولكن ناحية عقلية وتصـيبه طيبه فطل علينا ؛ حيث إنها شرحت نسـبها في جرأة نادرة على ما في هذا النسـب من مرارة وذل من غير أن يدخلها غرور، ولا زهو ولا حياء ، فهي تحس بالفارق بينها وبين علية القوم ، وسرارتهم فتقر بها ، راضية ؛ وهى شجاعة نادرة منها .

عبيدة الطنبورية

كانت " عبيدة الطنبورية " من المحســنات المتقدمات في الصــنعة ، يشــهد لها بذلك " إسـحاق " ، وحسـبها بشـهادته ، وكان " أبو حشـيشـة " يعظمها ، ويعترف لها بالرياسة والأستاذية ، وكانت من أحسن الناس وجهاً ، وأطيبهم صوتاً ذكرها " جحظلة " في كتاب الصنبوريين والصنبوريات " ، وكانت لا تخلو من عشق ، ولم يعرف في الدنيا امرأة أعظم صنعة منها " الصنبور " ، وكانت لها صنعة عجيبة ، فمنها في الرمل :

كــن لي شـــفــيــعــا الــيــكــا إن خـــف ذاك عـــلــيــكــا

وأعـــفـــنـــي مـــن ســـؤالي ســـواك مـــا في يـــديــكـــا

يـــا مـــن أعـــز وأهـــوى مـــا لي أهـــون عـــلــيــكـــا

وقد اجتمع " الصــنبوريون " عند " أبي العباس الرشــيد " يوماً، وفيهم " المســدود وعبيـدة " فقـال " للمســدود " غني ، فقـال لا والله لا تقـدمـت " عبيدة " ؛ وهي الأستاذة ، فما غني حتى غنت

وفى عبيدة يقول بعض الشعراء :

أمســـت عبيدة في الإحســـان واحدة ... فــالله جــار لـهــا من كــل محــذور

من أحســن الناس وجها حين تبصرها ... وأحــذق الـنــاس إن غـنــت بطنبور

ويروى عن إسحاق أنه قال " طنبور " إذا تجاوز " عبيدة " فهو هذيان :

ســـقـمـت حـتـى مـلـنـي العـائـد ... وذبــت حتى شــمــت الحـاســـد

وكنت خلواً من رسيس الهوى ... حــتــى رمــاني طــرفــك الصـــائــد

عزة الميلاء

كانت " عزة الميلاء " مولاة للأنصــار ، ومســـكنها بالمدينة ، وهى أقدم من غني الغناء الموقع من النســـاء بـالحجـاز ، وماتت قبل " جميلة " أخذ عنها الغناء " معبد " مالك وابن محرز " وغيرهم ، فـأكثر الأخـذ وفى نهـايـة الأرب يقول : " وقـد أخذ عنها " معبد ومالك بن أبي السماح ، وابن محرز " وغيرهم من المكيين والمدنيين [1] .

وكانت من أجمل النسـاء وجهاً ، وأحسـنهم جسـماً ، وسميت الميلاء لتمايلها في مشيتها وقيل إنما سـميت الميلاء ؛ لأنها كانت تلبس " الملاء " وتتشبه بالرجال ، وسميت بذلك ، وقيـل " بل كانت مغرمة بالشرـــاب ، وكانت تقول " خذ ملاء وأردد فارغاً " ، وكانت " عزة الميلاء " من أحسن الناس ضرباً بالعود ، وكانت مطبوعة على الغناء لا يعيبها أداؤه ولا صـنعته ، ولا تأليفه ، وكانت تغني أغاني القيان ، من القدائن مثل شـيرين ، وزرنب وفى نهـايـة الأدب " زرياب " وكذلك " خوله والرباب وســـلمي "ورائقة وكانت رائقة " أسـتاذتها ، ولما قدم " نشيط وسائب "خائر المدينة غنيا أغاني بالفارسية ، فأخذت عنها مشـــافهة وفهمت " عزة " عنهما نغماً ، وألفت عليه ألحاناً عجيبة ، فهي أول من حقن أهل المدينة بالغناء ، وحرض نساءهم ورجالهم عليه .

(1) نهاية الأدب : ص٥ ، ص٥٠ .



وكان مشـايخ أهل المدينة إذا ذكروا " عزة الميلاء " قالوا : "لله درها ، ما كان أحسـن غناءها ، ومد صـوتها ، وأندى حلقها ، وأحسـن ضربها بالمزاهر ، والمعزف ، وسـائر الملاهي ، وأجمل وجهها ، وأظرف لسـانها ، وأقرب مجلسـها ، وأكرم خلقها ، وأسخى نفسـها ، وأحسـن مساعدتها ، وكان " ابن سريج " في حداثه سنة يأتي المدينة فيسمع من " عزة " ويتعلم غناءها ، ويأخذ عنها وكان بها معجباً ، وكان إذا سئل من حسن الناس غناء ؟ يقول : مولاة الأنصار المفضـلة ، وفي نهاية الأدب " المفضـلة " على كل من غني وضرب بالمعازف ، والعيدان في الرجال والنساء .

ويروى أن " ابن محرز " كان يقيم " بمكة " ثلاثة أشهر ويأتي المدينة فيقيم بها ثلاثة أشهر ؛ من أجل " عزة الميلاء " وكان يأخذ عنها [1] .

ويروى " ابن ضـوببياً " كان أكثر ما يأوي منزل " عزة الميلاء " ، وكان في جواريها ، وكان إذا ذكرها يقول : " هي سـيدة من غنى من النسـاء ، مع جمال بارع ، أو خلق فاضـل ، وإسـلام لا يشـوبه دنس ، تأمر بالخير وهى من أهله ، وتنتهي عن السـوء وهى مجانبة له ، فما كان أنبلها ، وأنبل مجلسـها " ، ثم قال: " كانت إذا جلسـت جلوساً عاماً فكأن الطير على رؤوس أهل مجلسها ، من تكلم أو تحرك تقر رأسه .

يقول " ابن سلّام " فما ظنك بمن يقول فيه : " طويس " هذا القول ، ومن ذلك الذي سلم من طويس (٢) ؟

ويروى عن " معبد " أنه أتي " عزة الميلاء " يوماً ، وهى عند " جميلة " وقداً سـنت وهى تغني على معزفه في شعر " ابن الاطنابة "

عـلـلاني وعـلـلا صـاحـبـيـا واسـقـيـاني مـن المـروق ريـا

قال: فما سـمع السـامعون قد بشيـء أحسـن من ذلك ، قال معبد : هذا غناؤها وقد أسنت فكيف بها وهي شابة ؟

---

(١) الأغاني : ص١٧ ، ص١٠٢ .
(٢) ذاته .



وقال " إسحاق " وذكر لي عن " صالح بن حسان الأنصاري " قال : كانت " عزة " مولاة لنا وكانت عفيفة جميلة ، وكان " عبد الله بن جعفر " وابن أبي عتيق " وعمر بن أبي ربيعة " يغشونها في منزلها فتغنيهم [1] .

وعن " عبد الرحمن بن أبي الزناد " عن أبيه قال : سمعت " خارجة ابن زيد " يقول دعينا إلى مأدبة في آل نبيط ، قال " خارجة فحضرتها " وحسان بن ثابت قد حضرها فجلسنا جميعاً على مأدبة واحدة ، وهو يومئذ قد ذهب بصره ، ومعه ابنه " عبد الرحمن ؛ فكان إذا أتي طعام سأل ابنه : أطعام يد أم يدين ؟ يعني باليد التريد ، وباليدين الشواء ؛ لأنه ينهش نهشاً ، فإذا قال طعام يد أكل ، وإذا قال طعام يدين أمسك يده ، فلما فرغوا من الطعام أتوا بجاريتين مغنيتين إحداهما " رائقة " والأخرى " عزة " فجلسن وأخذن مزهريهما ، وضربنا ضرباً عجيباً وغنتا ، يقول حسان :

أنظر خليلي بباب جلق هل تبصر دون البقاء من أحد

فاسمع حسان يقول قد أراني بهما سميعاً بصيراً وعيناه تدمعان ، فإذا سكنتا سكت عنه البكاء ، وإذا غنتا بكى ، فكنت أرى ابنه عبد الرحمن إذا سكنت يشير إليهما أن تغنيا ، فيبكى أبوه فأقول : ما حاجته إلى إبكاء أبيه ؟

ويروى أنه بكى حتى سدر ثم قال : هذا عمل الفاسق ، أما لقد كرهتم مجالستي ، فقبح الله مجلسكم سائر اليوم ، وقام فانصرف[2] .

---

(١) ذاته : ص١٠٣ .
(٢) ذاته : ص١٠٦ .

الغناء

نشأته :

الغناء لون من ألوان التعبير الإنســاني في الحياة الأولى ، لأية أمة من الأمم فهو مثله كمثـل الألفـاظ والجمل التي تحمل المعاني ، ثم الكشــف عنها ، ومثلما يكون تعبير الألفاظ عن المعاني سـاذجاً في بدء حياة الأمم ، فذلك يكون غناؤها ، فهو ينشأ وليداً مع النشــأة الأولى للشــعوب ، ثم يتطور إلى النضــوج والتهذيب تبعاً لأطوار البيئة الاجتماعية والثقافية المرتبطة بهما .

والغناء هو تعبير عن الانفعالات النفسـية للشـخص فهو قد يعبر عن عاطفة الفرح ، أو الحزن ، أو يعبر عن غريزة الجوع ، أو الشـهوة ، أو ما شابه ذلك من الإحساسات الإنسانية ، والغرائز البشرية ؛ لذلك كان من العسير تحديد منشأة الغناء فى الشعوب البشر ــيـة عامة إلا بالوقت الذي يتكون فيه اجتماعهما ، فيحتاج كل فرد إلى التعبير عن أغراضه وميوله ، أو التعبير عن انفعالاته وأحاسيسه .

والغناء كتعبير موسـيقي له صلة كبيرة بالشعر كتعبير لقطر، وما أظن أنهما يختلفان تمام الاختلاف في بدء نشـأتهما ؛ لأن معنيهما واحد وهو الإحساس على تباين ألوانه ، لكن غايتهما واحدة وهى التعبير كلٍ بطريقته عن هذه الأحاسيس .

والذي لا شك فيه أن الغناء أصل للشعر ومنبع له فالمغني قد يترنم بألفاظ ، ويتغني بعبارات دون أن يكون لهذه الكلمات صـلة بالشعر كفن له أصوله ، وقواعده ؛ ولأن العاطفة تخلق في الإنسان قبل أن تخلق فيه القدرة عن التعبير ؛ فالغناء منبع للشعر وأصل له .

فالشـعر غناء ارتقي مع تطور الأزمان واتسـاع مرافق الحياة لهذه الصلة الأكيدة بين الغناء والشـعر يأخذنا الحديث ويقودنا حتماً إلى ما بين الشـاعر والمغني من صـلة ، وعلاقة كل واحد منهما بالآخر .

الشاعر والمغني :

إن الغناء كعاطفة يعبر عنها بأي لون من ألوان التعبير ؛ فبذلك يكون قوياً الغناء متقدماً على الشعر كتعبير فني له أصول وقواعد .

وعلى هذا يكون المغني قد سبق الشاعر فى الوجود ونعني هنا بالمغني كل من ترنم أو تغني بألفاظ تعبر عن معني ، أياً كانت قيمته أو بأصوات توقيعية تعبر عن إحساس أياً كان نوعه .

هذا المغني سبق الشاعر في الوجود ؛ وذلك مما لا ريب فيه، وبهذا المغنى موجود منذ وجود الإنسان على ظهر الكرة الأرضية ، ولن ينفرد الإنسان وحده بهذه الميزة ، بل إن له من الحيوانات التي عرفت بالحنان ، ورقة القلب مثل " الإبل " ، ومن الطيور مثل " الحمام " ما يشترك وإياه في هذا الغناء .

وليس بمنأى أن يكون من المغنيين من استطاع أن ينظم الكلام نظماً موسيقياً ويتغنى به ، ومن هنا يكون الشاعر قد خلعه من المعنى إن جاز هذا التعبير ، أو أن المغنى تهذبت لغته واستيقظ ذوقه الفني ، وارتقى تعبيره ، فنظمه وجهله ماده لغنائه ؛ فالصلة بين المغنى والشاعر هي الصلة بين المعاني والتعبير ، فهو بذلك لابد من اجتماعهما ، وإن سبق أحدهما الآخر .

لذا كان المغنى في بعض الأزمنة هو الشاعر ، وهو الذي ينظم الشعر الساذج السطحي في المعني ، وهو الذي يغنيه مثلما كان في مصر ، في عصر الدولة الفاطمية وما بعد هذا العصر من أناس وأقوام يغنون على " الربابة " ، وكان ذلك في المقاهي والطرقات ، والصحراء والفلوات ، حيث إنهم كانوا يغنون كلاماً من اختراعهم ، ووحي إلهامهم ، أو من اختراع غيرهم.

وكانت هذه التسمية من العامة ، ويحدثنا تاريخ الأدب العربي أن بعض " شعراء اليونان " كانوا يغنون بشعرهم ، وأن الأدب العربي ؛ حيث تسرب من الأندلس إلى " أوربة " أوجد فيها طائفة من الشعراء المغنين الذين كانوا يطوفون بالبلاد ويغنون الناس بأشعارهم ؛ ولكن تاريخ الأدب العربي لم يحدثنا عن مثل هذا الشعار من شعراء العرب ، فنحن لا نعرف شاعراً جاهلياً أو غير جاهلي كان يتغنى بشعرة ، اللهم إلا ما ورد من أن شعر " الأعشى" كان يتغنى به في أنحاء الجزيرة العربية ، وأن بعضاً من نساء العرب كن يغنين لأطفالهم بعض الأراجيز .

ومن أمثلـة ذلـك ما ورد من أن المرأة العربية كانت لا تنوم طفلها على بكاء ؛ حيث إن البكاء يفسـد مزاج الطفل ويغير دمه ؛ فينشأ بذلك نشأة معقده ، وينعكس ذلك على ســلوكـه في الحيـاة العـامـة، بل كانت المرأة العربية تهدهد طفلها ، وتغنى له وتضاحكه؛ حتى ينام فينشأ بذلك نشأة سليمة سوية ؛ فكانت تقول له :

كــن مــاجــداً كــن مــاجــدا أصـــبــت عــبــداً نــائمــاً

وقصته ابنه " زيد الفوارسي المنقرى " مع زوجها شهيرة معروفة وهى :

إن زوجها ولد له طفل فأخذه وضمه إلى صدره وشرح يغنى له وهو يقول :

أشـــبـه أبـا أمـك أو أشـــبهـاً عمـل ولا تــكــونــن كــهــلــوف وكــل

يصـــبح في مضـــجعـه قـد انجـدل وارق إلى الخيرات زنأ في الجبل

فأخذته أمه وضمته إلى صدرها وأخذت تهدهده وهى تقول:

أشـــبـه أخـي أو أشـــبـهـاً أبـاك أمـــا أبي فـــلــن تـــنـــال ذاك

فانظر إلى ردها على زوجها ، وهى تقول له : أن ابنك هذا يشبه أخي أو يشبهك أنت ، أما أبي وهو الفارس المغوار لن يصل إلى منزلته ؛ حيث إن منزلته شاهقة وهمته عاليه ، ومنزلته بين الفرسان رفيعة ، ويقول بعض أهل التفسير في قول الله تعالي:

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِيالْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ [سورة فاطر: الآية ١]

هو الصوت الحسن ، وقال النبي " ﷺ " لأبى موسى الأشعري ، لما أعجبه حسن صوته : " لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود " .

وزعم أهل الطب أن الصـوت الحسـن يسرى في الجسم ، ويجرى في العروق فيصفوا لـه الـدم ، ويرتـاح لـه القلب ، وتنمو له النفس ، وتهتز الجوارح ، وتخف الحركات ، ومن ذلـك كرهوا للطفـل أن ينوّم على أثر البكـاء حتى يرقص ويطرب [1] وقـالـت " الأخيليه" للحجاج بن يوســف الثقفي " حين ســألها عن ولدها، وأعجبه ما رأى من شــبابه " إني والله ما حملته ســهواً ميتاً ، ولا أرضــعته غيلاً ، ولا أنمته تثقاً تعني لم أنومه مســتوحشــاً باكياً، وقولها ما حملته ســهواً : تعني في بقايا الحيض ، ويقال : حملت المرأة وضعاً وتوضعاً إذا حملت في استقبال الحيض ، وقولها : ولا وضعته تينا تعني منكسـاً ، وقولها : ولا أرضـعته غيلاً ، تعنى لبناً فاسـداً ، وزعمت الفلاسـفة أن النعم فضـل بقى من المنطق لم يقدر اللسـان على اسـتخراجه فاسـتخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع ولا التقطيع ، فلما ظهر عشقته النفس ، وحن إليه الروح .

ولذلك قال " أفلاطون " : لا ينبغي أن تمنع النفس من معاشـقة بعضـها بعضـاً ، ألا ترى أن أهـل الصــنـاعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترنموا بالألحان فاستراحت لها أنفسهم، وقد يتوصل بالألحان الحان إلى خير الدنيا والآخرة ؛ ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق ، من اصـطناع المعروف وصلة الرحم، والذّبُّ عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب ، وقد يبكي الرجل بها على خطيئته ، ويرق القلب من قسوته ، ويتذكر نعيم الملكوت ويمثله في ضميره .

وقال " أحمد بن أبي داود " : إن كنت لأســمع الغناء من مخارق عند " المعتصــم " فيقع على البكاء حتى ، إن البهائم لتحن إلى الصـوت الحسن وتعرف فضله ، وقال " العتابي وذكر رجلاً فقال : والله إن جليه لطيب عشرـته لأطرب من الإبل على الحداء، والنحل على الغناء .

---

(1) العقد الفريد : لأبن عبد ربه الأندلسي : ص٧ ، ص٢ .

وتاريخ الأدب العربي يكتنفه الغموض ؛ ولذلك لم يســتطع الباحثون ، وعلماء الأدب أن يحققوا منـه إلا ما كان قبل الإســلام بنحو قرن ونصــف قرن ؛ وذلك على وجه التقريب على أن الشـعر في هذه الحقبة كان محل شك ، وريبه لدى بعض الباحثين ، والذي يهمنا أن الغناء غريزي في كل أمة ، وأن للشعر صلة بالغناء ، والمغنى والشاعر صنوان وأخوان ، وإن لم يكن أحدهما سابقاً للأخر سبقاً زمنياً ؛ فهما على أقل تقدير قد وجدا معاً ، وبتقدم الحياة واتسـاع عمرانها ، وأطوار الفكر البشـري فيها انفصـل الغناء، وانفصــل بانفصــالهما الشــاعر والمغني ، فراح المغني يحمل رســالة الغناء ، والشاعر يحمل رسالة الشعر .

الغناء والأديرة

كان لأديرة الشــام وفلســطين ، والعراق والحيرة أثر كبير في انتشــار الشرـاب الغناء ، ولقد كان العرب الجاهليون يقصـدون بعض هذه الأديرة ، ويقضون فيها أوقاتهم في الشراب والغناء ، وفي ذلك يقول بعض الشعراء في راهبي " دير نجران " :

أيـا راهبي نجران مـا فعلـت هنـد ... أقـامـت على عهدي ؟ وأني لها عهد ؟

إذا بعـد المشــتـاق رثـت حبـالـه ... ومـا كـل مشــتـاق يـغـيره البعـد

وللأعشى- شـعر كثير في وصـف هذه الأديرة وتصـوير مجالس الشراب ، والغناء بها ، ومنه :

وكـعـبـةُ نَـجْـرانَ حـتـمٌ عـلـيـكِ ... حـتـى تُـنـاخِـي بـأبـوابِـهـا

نَـزور يـزيـدَ وعـبـدَ المَســيـح ... وقـيـســاً هُـمُ خـيرُ أربـابـهـا

وشــاهـدُنـا الجُـلّ واليَـاسِـمينُ ... والمُسْــمِـعـاتُ بـقُصّــابـهـا

وقد تغني بهذا الشعر " بنان وجحظة " من مغنى العرب .

ولقد كانت الأديرة مرتقاً خصباً لتفتن أذهان الشعراء بشعر الوصف الغنائي ، " بالبحتري " وهو شاعر عفيف " شعر كثير في الخميرات وتصوير المجالس فيها " ولأبن المعتز في دير العذارى شعر كثير منه :

وحبك يا دير العذارى قليل ما ... يجن بما تحويه من طيبه قلبي

كذَبتُ الهوَى ، إن لم أقِفْ أشتكي الهوَى إليكِ ... وإن طالَ الطّريقُ على صَحبي

وهل هيَ إلا حاجةٌ قضيت لنا ... و لومٌ تحملناه في طاعةِ الحبّ

ولأبن فيروز في وصف مجلس شراب :

وروضة لهو قد جنيت ثمارها ... بدير العذارى بين روض وأنهار

تخال بها وجه المدير وكأس ... هلالاً وكأساً بين أنجم نوار

يطوف بها بريق مفدى كرامة ... علينا بأسماع كرام وأبصار

وما يجتمع الشراب والشعر إلا كان الغناء .

وحتى الشعراء الزاهدون يغنون ويرقصون فهذا أبو العتاهية يحدثنا عنه " محمد بن المؤمل " قال :

كنت مع " أبي العتاهية " في " سميريته " ونحن سائرون إلى دير " أشموني " فسمع غناء من بعض النواحي فاستحسنه وطرب له ، وقال لي : أتحسن أن ترقص ؟ قلت نعم ، قال : فقم بنا نرقص : فقلت : فى سميرية ؟ أخاف أن نغرق ، قال : إن غرقنا أليس نكون شهداء طرب ؟ ولم يكن الشراب والغناء قعداً على الشعراء والعابثين فى هذه الأديرة ، بل كان للخلفاء ليال وأيام عجاب .

حدث إسحاق الموصلي قال :

خرجنا مع الرشـيد إلى " دير القائم " فشرـبنا فيه ثلاثة أيام ، دخلت الدير ، فرأيت فيه داعباً نهد ثدياها فدعوت بنبيذ وشربت على وجهها أقداحاً وقلت :

بـــدَيــرْ الـــقــائِـــم الأقصَى ـــ غــــزالٌ شـــــادِنٌ أَحْـــوَى

بَـرَى حُـبِّـي لـه جِسْـــمِـي ولا يَـــعْـلَــمُ بمـا ألـقَـى

وأكـــتُـمُ حــبَّــه جُــهــدِي ولا واللهِ مــا يَــخْــفَــى

ثم دعوت بـالعود فغنيـت وأنـا أنظر إليهـا وهى تضــحـك ، ثم قمت فدخلت على الخليفة وأنا ميت من الســكر ، فأخبرته الخبر ، فقال : إذا جاء الليل فقم بنا إليها ، فقمت معه وقد تلثم فلما رآها قال: مليحة والله ، ثم دعا بالشرـاب فشرـبنا وغنيته الصوت ثلاث مرات ، ثم خرج وأمر لي بثلاثين ألف درهم ، فقلت : يا سيدي وصاحبة القصة ؟

فأمر لها بخمسة آلاف درهم ، وأمر بألا يؤخذ من مزارع ذلك الدير خراج .

إلى ذلك الحد كان الشغف بالغناء والإسراف في العطاء.

آلات الغناء :

لقد نطق العرب الأولون بالشــعر عن ســجية ســليمة ، وفطرة قويمة ، وكما نطقوا بالشـعر عن شجية سليمة كذلك نطقوا بألحانهم وأنغامهم ، على غير قاعدة علمية ، أو تنسـيق معلوم له فن وقواعد، وقد كان أول منبع لنشـأة الموسيقى " سير الإبل " في الصحراء فهو الذي أوحى إليهم ترنيم الشعر وتلحينه ، فكان " الحداء " أول غناء للعرب الأولين ، بل هو أول آلة غنائية يســتعملوها من الخشــب ، أو النحاس ، أو الأوتار التي صــنعوها من أصــواتهم ، ومن مخارج الحروف في حلوقهم ومن حرارة الشـــعر في وجـدانهم ، ثم اتصـــل بهم الفرس والروم فـدخلـت معهم آلات الغنـاء وصناعته .

يقول " ابن خلـدون " في مقـدمتـه " ثم تغنى الحـداء في حـداء إبلهم ، والفتيـان في قضـاء خلواتهم ، فرجعوا الأصـوات وترنموا ، وكانوا يسـمعون " الترنم " غناء ؛ وذلك إذا كان بالشعر، وإذا كان بالتهليل أو نوع القراءة تغييراً .

ويقول بعض العلماء : تنغيم الأشـــعـار التي في ذكر الله تســـمى " تغييراً " لأنهم إذا تناشدوها بالألحان طربوا فرقصوا وأرهجوا " أي أثاروا الرهج ، وهو الغبار [1].

ومن آلات الغناء ما يســـمى " الشـــبابة " وهى قصـــبة جوفاء فى جوانبها ثقوب فيها فتصوت ، فيخرج الصوت ، ويخرج الصوت من جوفها وبعض ثقوبها مسدودة والأخرى مفتوحة.

وتشـبه هذا الآلة آلة أخرى تسـمى " الزلامى " وهو المزمار المصـنوع من قطعتين على شـكل قصبة جوفاء منحوتة الجانبين ومثقوبة الجوانب وينفخ فيها بقصبة أخرى نحيلة توصل الصوت إلى جوفها فيخرج حاداً سريعاً.

ومن آلات الغناء "البوق " وهو من نحاس أجوف في طول الذراع يضيق م أوله ، ويتسع بالتدريج إلى أن يصـير مخرجه في اتسـاع الكف وينفخ فيه بقصـبة صـغيرة فيخرج منه الصوت ثخيناً دوياً.

وثمت آلات أخرى تصـــنع من الأوتار : وكلها جوفاء منها ما هو على شـــكل قطعة من الكرة مثل " اليربط والرباب " والأولى ذو ثلاثة أوتار وهو فارس معرب ، قال الأعشى:

وشـــاهـدُنـا الـجُـلّ والـيَـاسِـــم   يـنُ والمُسْـــمِـعـاتُ بـقُصّـــابـهـا

وبَـــرْبـــطـــنـــا دائـــمٌ مُـعْـمَـل   فـأيُّ الـثـلاثـةِ أَزْرَى بـــهـــا ؟

ومنها " القانون " وهى آلة مربعة الشكل توضع الأوتار على بساطها مشدودة في رأسها إلى رسـالتين جائلة ليتأتي شـد الأوتار ورضـوها عند الحاجة إليها ، ثم تقرع الأوتار إما بعود وإما بوتر آخر مشدود بين طرفي قوس بعد أن يطلى بالشمع والكندر

ومن الآلات التي غنى بهـا العرب " العيـدان " والطنـابير ، " والمعـازف " والمزامير " ، ولاسـيما بعد أن اتصـل بهم المغنون من الفرس والروم ، وصـاروا موالى لهم ، أمثال " نشيط الفارسي " وطويس " وسائب خاثر " وما زالت صناعة الغناء وآلتها تندرج وتنمو وتتكامل ؛ حتى بلغت نهاية نضجها فى أيام العباسيين ، فظهرت مدرسة الغناء الحديث على يـد شـــيوخـه المجددين أمثال "إبراهيم بن المهدي " و إبراهيم الموصـــلي " وابنه إسحاق " وابنه حماد.

---

(1) مقدمة ابن خلدون .



وهؤلاء تفننوا في الغناء ، وأبدعوا في مجالسه " ببغداد " فأدخلوا فيه الرقص بالملابس المطرزة بآلاته ، وبالقضبان والأشعار ، كما اتخذت آلات أخرى تسمى " الكرج " وهى تماثيل من الخيول الخشبية المسرجة ، تعلق بأطراف أقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل في مجالس الغناء " والكرج " فارسي معرب ، وهو ما يتخذ مثل المهر يلعب عليه ، قال جرير :

أمسى الفرزدقُ في جلاجلِ كرجٍ بعدَ الأخيطلِ زوجةً لجريرِ

كما كان في تلك المجالس كثير من اللعب المعدة للولائم والأعراس ، وأيام الأعياد ، ومجالس الفراغ واللهو ، وكثرة هذه المنع " ببغداد " وأمصار " العراق " وانتشرت منها إلى غيرها.

وكان " لإبراهيم الموصلي " وابنه " إسحاق " غلام اسمه "زرياب " أخذ عنهم الغناء فأجاده ، فصرفوه إلى بلاد الغرب غيرةً منه فلحق " بالحاكم بن هشام " ابن " عبد الرحمن الداخل " أمير الأندلس فأكرمه وقدره ، فانتشرت في الأندلس أغانية وفنونها وعمتها حتى عصر الطوائف ، ثم انتقلت منها مع انتقال الزمان ، عنها إلى بلاد العدوة " بأفريقية " والمغرب.

ويرى " ابن خلدون " أن صناعة الغناء آخر ما يصل في العمران من الصنائع ؛ لأنها كماليه للفراغ ، واللهو والطرب ؛ وهى أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه بحوادث الأيام [1].

---

(1) ذاته .



أراء العلماء في الغناء

يقول " الغزالي " ولا أعني به صـاحب الإحياء ؛ إنما أعنى به إمام العصرـ الحديث الشـيخ " محمد الغزالي السـقا " الذي يرقد جثمانه في بقيع الغردق " يرحمه الله " : إن الغناء كلام ، حسنه حسن ، وقبيحة قبيح ؛ فأنا مثلاً أحب أن أسمع :

أخـي جـاوز الـظـالمـون المـدى   فـحـق الـجـهـاد وحـق الـفـدا

أما الغناء الذي يبعث على تنشيط الغرائز وإثارة الشهوات فهو المحرم [1]

واختلف الناس في الغناء فأجازة عامة أهل الحجاز ، وكرهه عامة أهل العراق ، فمن حجة من أجازة أن أمثلة الشعر الذي أمر به النبي " ﷺ " وحض عليه وندب أصحابه إليه ، وتجند به على المشركين ، فقال : لسيدنا " حسان بن ثابت " ا" شن الغارة على بنى عبد مناف ، فو الله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام ، والشعر هو ديوان العرب ، ومقيد أحكامها ، والشاهد على مكارمها ، وأكثر شعر " حسان بن ثابت " يغنى به ويقول : فرج بن سلاّم : حدثني الرياشي عن الأصمعي قال : "شهد" حسـان بن ثابت " ا" مأدبة لرجل من الأنصـار وقد كف بصرـه ومعه ابنه " عبد الرحمن ؛ فكلما قدم شيء الطعام قال " حسـان " لابنه : أطعام يد أم يدين ؟ فيقول له " عبد الرحمن " طعام يد ؛ حتى قدم الشعراء فقال له : هذا طعام يدين ، فقبض الشيخ يده، فلما رفع الطعام اندفعت " قينة " تغني لهم بشعر " حسان" :

أنـظـر خـلـيـلي بـبـاب جـلـق هـل   تـبصرـ دون الـبـقـاء مـن أحـد

جمال شَعْثاء إنْ هَبَطْنَ من ال   مـحـبـس دون الكثبـان فـالسـنـد

قال : فجعل " حسـان " يبكى ، وجعل " عبد الرحمن " يومئ إلى القينة أن تردده ، يقول الأصمعي فلا أدرى ما الذي أعجب " عبد الرحمن من بكاء أبيه [2] .

---

(1) السنة النبوية بين أهل الفقة ، وأهل الحديث : ط دار الشروق بالقاهرة .
(2) العقد الفريد : لأبن عبد ربه : ص٧ ، ص٥ ، ط دار الفكر .

وقالت " عائشة علموا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم.

وأرف النبي " ﷺ " الشريد الثقفي فاستشهده من شعراء أمية، فأنشده مائة قافية ، والنبي " ﷺ " يقول له " هيه " استحساناً لها ، فلما أعياهم القدح في الشعر ، والقول فيه قالوا : " الشعر حسن ولا نرى أن يؤخذ بأحسن حسن " ، وأجازوا ذلك في القرآن وفى الآذان أحق عنها ، وإن كانت غير مكروهه فالشعر أحوج إليها لإقامة الوزن وإخراجه عن حد الخبر ، وما الفرق بين أن ينشد الرجل

أتعرق رسما كاطراد المذانب   مرسلاً أو يرفع صوته مرتجلاً

وإنما جعلت العرب الشعر موزوناً لمد الصوت فيه والدندنة، ولولا ذلك لكان الشعر كالخبر المنثور ، واحتجوا في إباحة الغناء واستحسانه بقول النبي " ﷺ " لعائشة " ل أهديتم الفتاة إلى بعلها ؟ قالت : عائشة نعم ، قال " ﷺ " : فبعثتم معها من يغنى قالت : لا ، قال " ﷺ " : أوما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل ؟ ألا بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتيناكم   فحيونا نحيكم

ولولا الحبة السمراء   لم نخلل بواديكم

واحتجوا بحديث " عبد الله بن أنس بن عم مالك " وكان من أفضل رجال الزهري ، قال : مر النبي " ﷺ " بجارية في ظل فارع وهى تغنى :

هل على ويحكم   إن لهوت من حرج

فقال : " ﷺ " لا حرج إن شاء الله .

والذي لا ينكره أكثر الناس غناء النصب ، وهو غناء الركاب ، وسمع " أنس بن مالك " أخاه " البراء بن مالك " يغنى ، فقال : ما هذا ، قال " البراء بن مالك " آيات عربية أنصبها نصباً[1].

---

(١) العقد الفريد : لأبن عبد ربه : ص٧ ، ص٦ ، وما بعدها بتصرف .



فائدة الغناء

يقول المفسرون في قوله تعالي :

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُ بَاعَ يَزِيدُ فِيالْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ [سورة فاطر: الآية ١] هو الصوت الحسن ويقول الشيخ " النسفي "إن الصوت الحسن زيادة فى الخلق وكذلك الخط الحسن ، والوجه الحسن ، فكل ذلك يعد زيادة فى الخلق [١].

وقال النبي " ﷺ " لأبي موسى الأشعري لما أعجبه حسن صوته : لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود ، وزعم أهل الطب أن الصوت الحسن يسرى في الجسم ، ويجرى في العرق ، فيصفو له الدم ، ويرتاح له القلب ، وتنمو له النفس ، وتهتز الجوارح ، وتخف الحركات ، ومن ذلك كرهوا للطفل أن ينوم على أثر البكاء حتى يرقص ويطرب [٢].

وزعمت الفلاسفة أن النعم فضل بقي من المنطق لم يقدر اللسان على استخراجه ، فاستخرجته الطبيعة بالألحان على التراجيع لا التقطيع ، فلما ظهر عشقته النفس وحن إليه الروح ، ولذلك قال " أفلاطون " : لا ينبغي أن تمنع النفس من معاشقة بعضها بعضاً ، ألا ترى أن أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترنموا بالألحان فاستراحت لها أنفسهم . [٣]

وليس من أحدٍ كائناً من كان إلا وهو يطرب من صوت نفسه ، ويعجبه طنين رأسه ولو لم يكن من فضل الصوت ؛ إلا أنه ليس فى الأرض لذة تكتسب من ما كل أو ملبس أو مشرب ، أو نكاح أو صيد ؛ إلا وفيه معاناة على البدن ، وتعب على الجوارح غيرة لكفي [٤].

---

(١) تفسير ابن كثير : المجلد الثالث ، ص٥٤٦ ، مكتبة دار التراث .
(٢) العقد الفريد : لأبن عبد ربه الأندلسي ، ص٧ ، ص٢ ، وما بعدها .
(٣) ذاته : ص٣ .
(٤) ذاته : ص٣ .

وقد يتوصل بالألحان الحان إلى خيري الدنيا والآخرة ؛ ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق ، من اصطناع المعروف وصلة الرحم ، والذّبُّ عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب ، وقد يبكي الرجل بها على خطيئته ، ويرق القلب من قسوته ، ويتذكر نعيم الملكوت ويمثله في ضميره.

وكان " أبو يوسف القاضي " ربما حشر مجلس الرشيد ، وفيه الغناء ، فيجعل مكان السرور به بكاء كأنه يتذكر نعيم الآخرة.

وقال " أحمد بن أبي داود " : إن كنت لأسمع الغناء من مخارق عند " المعتصم " فيقع على البكاء حتى ، إن البهائم لتحن إلى الصوت الحسن وتعرف فضله ، وقال " العتابي " وذكر رجلاً فقال : والله إن جليه لطيب عشرته لأطرب من الإبل على الحداء والنحل على الغناء.

وكان صاحب الفلاحات يقول : بأن النحل أطرب الحيوان كله إلى الغناء ، وإن أفراخها لتستنزل بمثل الزجل والصوت الحسن.

قال الراجز :

والطير قد يسوقه للموت   إصغاؤه إلى حنين الصوت

وبعد ، فهل خلق الله شيئاً أوقع بالقلوب وأشد اختلاساً للعقول من الصوت الحسن لاسيما إذا كان من وجه حسن ، كما قال الشاعر :

رب سماع حسن   سمعته من حسن

مقرب من فرح   مبعد من حزن

لا فارقاني أبدا   في صحة من بدن [1]

---

(1) العقد الفريد : ص٣٢٢ .

وهل على الأرض رعديد مستطار الفؤاد ، يغنى بقول جرير بن الخطفي :

قـل لـلـجـبـان إذا تـأخـر سرجـه   هـل أنـت مـن شرك المنيـة نـاجي

ألا تـاب إليـه روحـه ، وقوى قلبه ، أم على الأرض بخيل ، قد انقطعت أطرافه يوماً ، ثم يغنى حاتم الطائي :

يرى البخيـل سـبيـل المال واحـدة   إن الـجـواد يـرى في مـالـه سـبـلا

ألا انبسـطت أنامله ، ورشـحت أطرافه ، أم هل على الأرض غريب نازح الدار بعيد المحلب ، يغنى بشعر " على بن الجهم":

يـا وحشـتـا للغريـب في بلـد لنـا   زح مـاذا بـنـفـسـه صـنـعـا

فـارق أحـبـابـه فـما انـتـفـعـوا   بـالـعـيـش مـن بـعـده ولا انتفعـا

يـقـول في نـأيـه وغـربـتـه   عـدلٌ مـن الله كـلُّ مـا صـنـعـا

ألا انقطعت كبده حنيناً إلى وطنه ، وتشـويقاً إلى [1] سكنه عن " حماد بن زيد " عن سـليمان بن يسار " ، قال : رأيت " سعد بن أبي وقاص " في منزلٍ بين " مكة والمدينة قد ألقى له مصـلي فاسـتلقى عليه ، ووضع إحدى رجليه على الأخرى ، وهو يتغنى ، فقلت : سـبحان الله أبا إسـحاق ثم أتفعل هذا وأنت محرم ؟ فقال : يا بن أخي ، وهل تسمعني قول هجراً ؟

ومن حديث " المفضل " عن " قرة بن خالد بن عبد الله بن يحي " قال : قال : " عمر بن الخطـاب " للنـابغـة الجعـدي : أسـمعني وعف ما عفا الله له عنه من غنائك ، فأسمعه كلمة له ، قال : وإنك لقائلها ؟ قال : نعم ، قال لطالما غنين بها خلف حمال الخطاب.

---

(1) العقد الفريد : ص٥٢٤ .

عاصم بن جريج " قال : سألت عطاء عن قراءة القرآن على ألحان الغناء والحداء ، قال : وما بأس ذلك يا بن أخي ، قال: وحدث " عبيد بن عمير الليثي" أن " داود النبي " عليه السلام " كانت له معزفه يضرب بها إذا قرأ الزبور ، اجتمع عليه الجن والإنس والطير فيبكي ، ويبكي من حوله وأهل الكتاب يجدون هذا في كتبهم، ومن حجة من كره الغناء انه قال : يسعر القلوب ويستفز العقول ، ويستخف الحليم ، ويبعث على اللهو ، ويحض على الطرب وهو باطل في أصلة ، وأخطأ في التأويل فقد نزلت الآية في قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السير والأحاديث القديمة ، ويضاهون بها القرآن ويقولون إنها منه ، وليس من سمع الغناء يتخذ آيات الله هزواً ، وأعدل الوجوه في هذا أن يكون سبيله سبيل الشعر فحسنه حسن ، وقبيحة قبيح[1].

وكره قوم الغناء على طريق الزهد في الدنيا ولذتها ، كما كره بعضهم الملاذ ولبس العباءة .

والحقيقة أن الحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه الله يقول تعالي وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِين يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ [سورة النحل: الآية ١١٦]
وقد يكون الرجل أيضاً جاهلاً بالغناء أو متجاهلاً به ، فلا يأمر به ولا ينكرون ، وقال رجل " للحسن البصري " : " ما تقول في الغناء يا أبا سعيد ؟

قال : نعم العون الغناء على طاعة الله . يصل الرجل به رحمه ، ويواسى به صديقه .

قال الرجل : ليس عن هذا أسألك .

قال : وعم تسألني .

قال : أن يغنى الرجل .

قال له : وكيف يغنى ؟

فجعل الرجل يلوى شدقيه وينفخ منخريه قال الحسن : والله يا ابن أخي ما ظننت أن عاقلاً يفعل هذا بنفسه أبداً وإنما أنكر عليه الحسن تشويه وجهه ، وتعويج فمه وإن كان أنكر الغناء فإنما هو من طريق أهل العراق فقد كانوا يكرهونه .

(١) العقد الفريد : لأبن عبد ربه ، ص٧ ، ص٧ ، وما بعدها .

وكان " عبد الله بن عمر " ب " يحب " عبد الله بن جعفر " فغدا عليه يوماً ، وعنده جارية في حجرها عود ، فقال : " ابن عمر " ما ذاك يا أبا محمد ؟ قال : وما تظن به يا " أبا عبد الرحمن " ؟ فإن أصاب ظنك فلك الجارية ، قال : " ما أوراني إلا قد أخذتها ، هذا ميزان رومي " فضحك " ابن جعفر " وقال : صدقت ، هذا ميزان يوزن به الكلام ، والجارية لك ، ثم قال : هات فغنت :

أيا شوقا إلى البلد الأمين وحى بين زمزم والحجون

ثم قال : هل ترى بأساً ؟ قال هل غير هذا ؟ قال لا ، قال : فما أرى بهذا بأساً .

وسمع " عبد الله بن عمر بن محرز " يغنى :

لو بُدِّلَتْ أعْلى منازلها سُفْلاً وأصبح سُفلها يَعْلُو

لعرفت مغناها بما احتَمَلتْ مني الضلوعُ لأهلها قَبْلُ

فقال له " عبد الله بن عمر " ، قل إن شاء الله ، قال : يفسد المعنى،

قال : " لا خير في كل معني يفسده إن شاء الله.

ويقول جرير المدني :

مررت " بالأسلمى العابد " وهو في مسجد رسول الله "ﷺ" يصلي فسلمت عليه ، فأومأ إلىّ وأشار بالجلوس فجلست ،فلما سلم أخذ بيدي وأشار إلى حلقي ، وقال : كيف هو ؟ قلت : أحسن ما كان قط ، قال : أما والله لوددت أنه خلا لي وجهك وأنك أسمعتني[1] :

يا لقومي بحبك المصروم يوم شطواء وأنت غير ملوم

أصح الربع من أمامه فقرا غير مغنى معازف ورسوم

(1) العقد الفريد : لأبن عبد ربه ، ص٧ ، ص١٠ ، وما بعدها .

كان لأبي حنيفة النعمان بن ثابت " جار من الكيالين مغرم بالشراب ، وكان أبو حنيفة يحي الليل بالقيام ، ويحييه جاره الكيال بالشراب ، ويغنى على شرابه :

أَضَـــاعُـونِي وأيَّ فـتـىً أَضَـــاعُـوا   لـيـومٍ كَـرِيـهـةٍ وسِــــدَادِ ثَـغْـرِ

فأخذه العس ليلة فوقع في الحبس ، وفقد أبو حنيفة صــوته واســتوحش له : فقال لأهلـة : مـا فعـل جـارنـا الكيال ، قالوا أخذه العس فهو في الحبس ، فلما أصـــبح أو حنيفة وضـع الطويلة على رأســه وخرج حتى أتى باب " عيسي ابن موسى فأسـتأذن عليه ، فأسرع في إذنه ، وكان أبو حنيفة قليلاً ما يأتي الملوك فأقبل عليه عيسى بوجهه وقال : أمر ما جاء بك أبا حنيفة ، قال : نعم " أصـلح الله الأمير ، جار لي من الكيالين أخذه عسس الأمير ليلة كذا ، فوقع فى حبسك ، فأمر " عيسى بإطلاق كل من أخذ في تلك الليلة ، إكراماً " لأبى حنيفة " ، فأقبل الكيال على " أبى حنيفة " متشكراً له؛ فلما رآه " أبو حنيفة " قال : أضعناك يا فتي ؟ يعرض له بقصيدته ، قال لا والله ؛ ولكنك بررت وحفظت [1].

([1]) العقد الفريد : لأبن عبد ربه ، ص٧ ، ص١٣ .